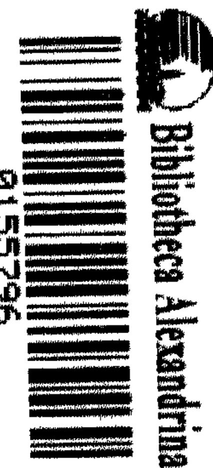
الدكتور حسني محمود حسين

أدب الرحلة عند العرب

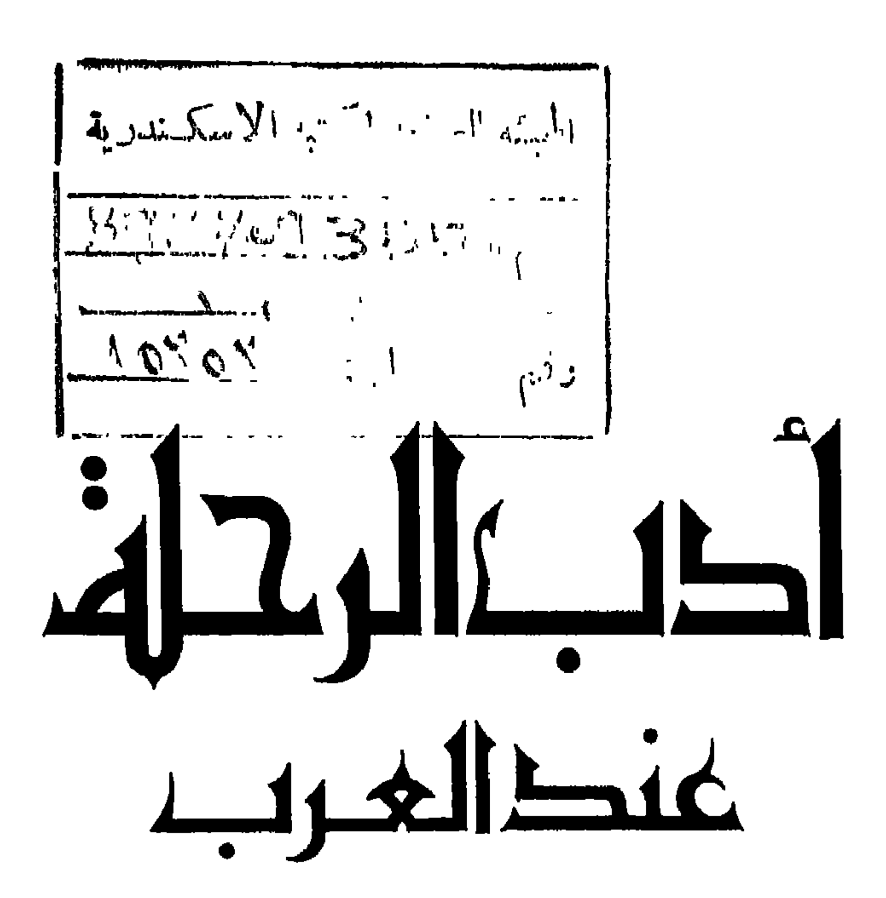


دار الأندلس

أدب الرحلة

عند العرب

الدكتور حسني محمود حسين



أدب الرحلة عند العرب

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الثانية
منقحة ومزيدة
١٤٠٣ هـ . / ١٩٨٣ م .

دار الأندلس - بيروت ، لبنان
: ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص.ب : ١١٤٥٥٣ - تلكس ٢٣٦٨٣

تمهيد

منذ دب الإنسان على هذه الأرض وهو يحاول اكتشاف ما يحيط به من أسرارها بقصد التعرف والسيطرة على ما يكتنفه من الحياة ، لا فرق في ذلك من حيث المبدأ بين ارتياده بقعة تجاوره من نفس الغابة التي يأوي إليها أو غزوه غابة أخرى ، وبين ارتياده أطراف الفضاء أو غزوه أجوازه البعيدة . ويوم يحط قدمه على سطح القمر(1) أو أي كوكب آخر سيبدأ يعيد سيرة أبيه الأقدم عندما حط هو الآخر بقدميه على سطح الأرض ، وانتصب على ساقيه يذرع ، متوجساً ، ما حوله منها ، ولكن مع فارق الأداة العلمية ، واختلاف الوسيلة والإمكانات التي توفرت له على مدى هذا التاريخ الإنساني ، الذي خط ذلك الأب الأقدم أول حروفه بتلك الخطوات الأولى في رحلة الحياة الآدمية . وتوسع الإنسان برحلاته على مدى الدهور ، ولم يعد يقصرها على سطح الكرة الأرضية ، فراح يتشوف رحلات أعجزته قدرته عن تحقيقها بالفعل ، فلجأ إلى خياله وفكره يجوس بهما خلال عوالم ودنى أخرى ، على غرار ما فعل آحاد نابهون من بنيه يعدهم الزمان على أصابع اليد الواحدة . وجاء إنسان القرن العشرين ليبدأ بالفعل تحقيق ما عجز عنه أسلافه بغير الخيال . وهكذا فإن حياة الإنسان رحلة دائمة لا تتوقف إلا على تخوم الأبدية . ويوم يعجز عن افتضاض أسرار الحياة والأكوان حوله بالرحلة أو بالخيال فلسوف تكون قدماه تقتربان به من تلك التخوم . . ولربما تكون رحلة من نوع جديد !!

والرحلة في هذا المفهوم أمر طبيعي يتعلق بحياة الأفراد والأمم ، ولا داعي للحديث هنا عن دور الأمم السابقة من الفراعنة والفينيقيين واليونان والرومان وغيرهم في مضمار الرحلات ، وإنما نحن معنيون بالتوجه إلى الحديث باختصار عن دور العرب في هذا المضمار لنتعرف على تطوره واتجاهاته لديهم .

أولاً : الرحلات : أهميتها وعلاقتها بالعلوم او بالجغرافيا خاصة :

إذا قلنا أن فناً من فنون القول العربي يعرض في مضمونه إلى ناحية أو إلى أخرى من نواحي الحياة ، فإننا نقول أن نمط الرحلات يتعرض إلى جميع نواحي الحياة أو يكاد ، إذ تتوفر فيه مادة وفيرة مما يهم المؤرخ والجغرافيا وعلماء الإجتماع والإقتصاد ومؤرخي الآداب والأديان والأساطير . فالرحلات منابع ثرّة لمختلف العلوم ، وهي بمجموعها سجل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة ومفاهيم أهلها على مر العصر . فالرحالة وهو يطوي الأرض أثناء رحلته يغطي في نفس الوقت ملاحظة مظاهر مختلفة في الحياة ، يشاهدها أو يسمعها أحياناً وينقلها في رحلته . ولا شك أن الرحالين يختلفون فيما بينهم في دقة ملاحظتهم وفي درجة اهتمامهم وفي نوع هذا الاهتمام ، كما يختلفون أيضاً في درجة صدقهم وأمانتهم وفي تنوع فهمهم للأمور تحت الظروف المتغايرة التي يخضعون لها ، ومع ذلك ، فإننا ننظر من هذه الناحية إلى الرحلات كمبدأ وككل ، مهما كان بينها من اختلاف وتنوع في الإتجاه والتقدير . ومن هنا كان للرحلات قيمتان عظيمتان : قيمة علمية ، وأخرى أدبية .

أما القيمة العلمية ، فقد تأتت لها مما تحتويه معظم هذه الرحلات من كثير من المعارف الجغرافية والتاريخية والإجتماعية والإقتصادية وغيرها ، مما يدونه

الرحالة تدوين المعاين في غالب الأحيان من جراء اتصاله المباشر بالطبيعة وبالناس وبالحياة خلال رحلته . وإذا حددنا هذه العلوم بأنها تسجيل للظاهرات المختلفة المتعلقة بميادينها ودراسة هذه الظاهرات وتفسيرها ، فإن الرحالة يمثل دور الناقل لهذه الظاهرات ليضعها بين أيدي الجغرافيين أو المؤرخين أو علماء الإجتماع مثلاً ، كل بحسب اختصاصه . وهو يقرب من أحدهم بمقدار ما يلجأ إلى دراسة ظاهرات اختصاصه وتفسيرها . فإن كان علم الجغرافيا مثلاً يدرس ظاهرات سطح الأرض الطبيعية والبشرية ، ويقوم منهجه في ذلك على تسجيل هذه الظاهرات وتفسيرها وتوزيعها على سطح الأرض ، فإن الرحالة وهو يدون مشاهداته الجغرافية على سطح الأرض إنما يعمل في خدمة هذا العلم من هذه الناحية على الأقل إذا لم يتجاوزها إلى الخطوة التالية لها في منهجه ، فهو عندما يصف الممالك والبلدان والأصقاع والأقاليم ، والمدن والمسالك ، ويتحدث عن المناخ والطبيعة ، وعن ظاهرات توزيع السكان وغير ذلك مما يعتبر من صميم الدراسات الجغرافية ، إنما يعتبر من هذه الناحية مرجعاً أساسياً ومعيناً كبيراً للعالم الجغرافي الذي يدرس تلك الموضوعات . ومثل ذلك يمكن أن يقال في الرحالة بالنسبة لباقي العلوم التي يتعرض لمجال دراساتها . ومن المعروف أن بعض المؤرخين والجغرافيين العرب يعتبرون رحالين ، إذ كانوا يجمعون مواد موضوعاتهم عن طريق الرحلة قبل أي طريق آخر. وهذه العلوم المختلفة مرت بعدة مراحل قبل أن تصل إلى ما هي عليه اليوم من دقة وتحديد وضبط ، وقبل أن تتخذ صفة العلم القائم بذاته بفضل تقدم العقل البشري وأدواته العلمية . فقد كان علم الجغرافيا مثلاً يعتمد قديماً الأسلوب الوصفي الأدبي، كما كان يستقي مواده من مصادر الأدب والتاريخ وعلم الإجتماع والإقتصاد والدين ، فإذا أصحابه يمزجون بين هذه العلوم جميعاً ، حتى ويمزجون بينها وبين الخرافات والأساطير ، فأتت كتبهم محتوية على كل

طريف ممتع . وحتى اليوم فإن العالم الجغرافي أو الباحث الإجتماعي ينزل إلى ميدان عمله ليرصد بعض الظاهرات التي تهمه من وجهة النظر الخاصة بعلمه وببحثه .

ومن هذه الناحية ، فإن من المتفق عليه أن الرحالين العرب قدموا ، على مرِّ العصور ، خدمات جلى في دراسة أحوال البلاد العربية والإسلامية من مختلف نواحيها. ولم تقتصر إفادتهم في ميدانهم هذا على البلاد الإسلامية وحدها ، وإنما تعدوها في رحلاتهم وأخبارهم إلى بلاد أجنبية أخرى في آسيا وأفريقيا وفي أوروبا فيما بعد ، ولما يكن وصلها الإسلام ، فأمدونا عنها بمعلومات من الدرجة الأولى خصوصاً إذا قورنت هذه المعلومات بما كان يعرفه العالم عنها في العصور الوسطى حتى الكشوف الجغرافية المتأخرة لدى الأوروبيين . ولقد كان للرحالة العرب في العصور الوسطى فضل كبير قدموه للإنسانية كجغرافيين ، ويتجلى في حفظهم ودراستهم للمادة الجغرافية الهائلة التي أورثها العلماء اليونان من أمثال إسترابون وبلينيوس وبطليموس القلوذي وغيرهم ، للعصور الوسطى ، واستفادتهم من هذه المادة إستفادة كبيرة . ولا يقلل كثيراً من قيمة ما كتبه الرحالون العرب في المادة الجغرافية ، ما خضعوا فيه للنظريات الموروثة عن الأوائل[٢] ، أو ما نقلوه من خرافات الشعوب وأساطيرها دون أن يحكموا فيه العقل وملكة النقد والتحليل التي يبدو أنها كانت ضعيفة لديهم في غالب الأحيان مما جعل مثل هذه النظريات تأخذ طريقها إلى أفكارهم مع أنها لم ترق إلى مستوى تجربتهم العملية التي أسهموا عن طريقها بتقديم مواد جغرافية جديدة وذات قيمة عظيمة .

وأما القيمة الأدبية في الرحلات فتتجلى في ما تعرض فيه موادها من أساليب ترتفع بها إلى عالم الأدب ، وترقى بها إلى مستوى الخيال الفني . وبرغم ما يتسم به أدب الرحلات من تنوع في الأسلوب من السرد القصصي إلى الحوار إلى الوصف وغيره فإن أبرز ما يميزه أسلوب الكتابة القصصي

المعتمد على السرد المشوق ، بما يقدمه من متعة ذهنية كبرى ، مما حدا بالدكتور شوقي ضيف إلى اعتبار أدب الرحلة عند العرب « خير رد على التهمة التي طالما اتهم بها الأدب العربي ، تهمة قصوره في فن القصة »[٣] .

وقد أفاد أدب الرحلة بغنى موضوعاته ، في صرف أصحابه في غالب الأحيان ، عن اللهو والعبث اللفظي والتكلف في تزويق العبارة ، إيثاراً للتعبير السهل المؤدي للغرض لنضجه بغنى تجربة صاحبه ، مما يفتقده كثير من الأدباء والمحترفين في بعض عصورنا الأدبية . ولا يعني هذا أن الأسلوب في هذا الأدب قد تخلص من كل الصفات والعيوب الأسلوبية الأخرى ، فهو يعتمد السجع أحياناً ، وهو ينحو منحى الجفاف والصرامة العلمية أحياناً أخرى خاصة في تناوله للموضوعات العلمية ومع هذا يظل مشوباً في أغلب الأحيان بشيء من الطراوة والإخضرار يبقيانه غضاً وعلى شيء من اللين ، « فلقد أثار هذا الأدب اهتماماً بالغاً بسبب تنوعه وغنى مادته ، فهو تارة علمي وتارة شعبي ، وهو طوراً واقعي وأسطوري على السواء ، تكمن فيه المتعة كما تكمن فيه الفائدة. لذا فهو يقدم لنا مادة دسمة متعددة الجوانب لا يوجد مثيل لها في أدب أي شعب معاصر للعرب»[٤] . وبهذه المميزات والخصائص المتعلقة بأسلوب أدب الرحلة وبموضوعه الشمولي الغني بما فيه من علم وأدب وخرافة وأسطورة يمكننا اعتباره نمطاً خاصاً من أنماط القول الأدبي، قد لا يرقى إلى مستوى الفن القائم بذاته كفن القصة أو الشعر أو المسرحية أو المقالة الأدبية مثلاً، ففيه تجتمع أساليب هذه الفنون وموضوعاتها كلها من غير أن تضبطه معاييرها أو أن يخضع لمقاييسها.

ثانياً ـ دواعي الرحلات والتأليف فيها عند العرب :

سنجعل الفتوح الإسلامية نقطة البداية في هذا الحديث ، مع أن عرب

الجاهلية كان لهم رحلاتهم التجارية إلى بلاد العراق والشام واليمن وغيرها ، ثم إن بعض الشعراء كانت لهم رحلاتهم في داخل الجزيرة وإلى خارجها . ومع أن هذه الرحلات لم يدون منها شيء أكثر مما ورد في مضامين الشعر وكتب اللغة فيما بعد ، إلا أنه لا بد أنها أفادت العرب فوائد عملية جلى في فتوحاتهم التي انطلقوا فيها إلى ما جاورهم من بلاد لهم بها سابق معرفة عن طريق هذه الرحلات وغيرها من مثل رحلات عبور البدو . . وجاءت عملية الفتوح رحلة أو رحلات في ذاتها قدمت للعرب تجارب ومعارف جديدة كلما توسعوا في هذه الفتوح ، وخلقت ظروفاً أخرى جديدة إقتضت الرحلة والبحث : فقد وحد العرب البلدان التي فتحوها دينياً وثقافياً إلى حد بعيد ، وتطلبت مسألة إدارتها التعرف التام عليها لضبط شؤونها المالية والإدارية بتنظيم الإدارة والبريد والخراج خصوصاً وأن ذلك يرتبط بالطريقة التي تم بها الفتح ليتقرر على أساسها مقدار الجزية والخراج ، ومن ثم تحمل المؤرخون من أصحاب السير والمغازي مهمة وصف هذه المدن وسكانها وأحوالهم . وبتحدد الأمور وتبلورها مع الأيام ، إستقل البعض بوصف المدن والأقاليم والتعريف بها وبطرقها وبخراجها . وكان متولو البريد وأشباههم أصلح الناس للقيام بهذه المهمة . فلم يكن غريباً إذن أن يؤلف « ابن خرداذبة » كتابه (المسالك والممالك) تقريراً عن جباية الدولة العباسية ، وهو يومها متولي البريد والخبر بنواحي الجبل بفارس ، وحرره في سامرا بعيد عام (٢٣٠) هـ . ثم كان كتاب (الخراج) لقدامة ابن جعفر، بيّن فيه الطرق والمسافات فضلاً عن قيمة جباية المملكة، وضمنه أخباراً كثيرة تتعلق بأحوال الدولة والبلاد المتاخمة لها . وفي هذه الفترة كان المسلمون قد علقوا بعلوم اليونان وكتبهم فتأثرت أبحاث العرب الجغرافية في عهدها الأول بما وصل إليه اليونان من قبل ، فكان أثر بطليموس على الجغرافيين منهم كبيراً ، فجاءت كتبهم تحمل آثاره بشكل

واضح . « فابن خرداذبة ، نقل بعض كتابه عنـه ثم أضـاف إليه الخـراج والطرق على ما ذكره هو في مقدمة كتابه »[٥] ، والخوارزمي في كتاب (صورة الأرض) خلف لنا خلاصة لجغرافية بطليموس ، إذ « حذا حذوه ، واقتفى أثره ، غير أنه جاء بكتاب جديد ممدوح مستحسن . . »[٦] وبالإضافة إلى ذلك فقد اقترنت بالحاجة الإدارية حاجة دينية إقتضت وصف طرق الحج لتعيين محطات القوافل ومنازل الحجاج بين البـلاد والأمـاكن المقدسـة في الجزيرة . ثم إن كثيراً من الحجاج والتجار قد وصفوا في كتب خاصة الطرق والبلاد التي رأوها . ولا شك أن طلب العلم في مراكز البلاد كان يقتضي رحلة طلابه من أطراف ومدن عديدة في أنحاء البلاد إلى مراكز العلم فيها ، يساعدهم وحدة البلاد السياسية والدينية والثقافية . فكان ذلك أيضاً أحد أسباب الرحلة الداخلية ووصف المشاهدات وتأليف الكتب فيها ، كما كان عند البعض روح المجازفة والمغامرة على غرار رحلة الفتية المغررين[٧] في بحر الظلمات ، حتى أنه ليظن أن من العرب من وصل إلى أمـريكا قبـل كولمبوس .

ومن الطبيعي أن العرب لم يبدأوا في تمثل الخبرات الخاصة بهم إلا بعد رسوخ قدمهم وازدياد معارفهم العلمية . حتى أنه « يمكن القول بأن مصنفات المسلمين لم تنشأ فرعاً متميزاً بنفسه عن فروع التأليف الأخرى إلا بعد عام ٨٠٠ للميلاد »[٨] . فعظمة الدولة في ذلك الحين هيأت لهم آفاق الإتصال القوي مع غيرهم عن طريق السفارات والبعثات مما فتح لهم أبواب معرفة عملية جديدة عرفوا من خلالها أخبار مجاوريهم معرفة دقيقة . ومن أقدم من يذكرونهم في هذا الباب سلام الترجمان الذي يقال أن الخليفة الواثق (٨٤٢ ـ ٨٤٧) أرسله في بعثة إلى بلاد الصين ليشاهد السد الـذي بنـاه الإسكندر في ديار يأجوج ومأجوج ، وعادت الرحلـة لتقص على النـاس أخبار الصـين وعجائبهـا[٩] . وكذلك فإن هنـاك بعثـات دينية كان لبعض

أفرادها دور في ميدان الرحلات والكتابة فيها ، كالبعثة التي أرسلها الخليفة المقتدر عام ١٩٢١ م إلى بلاد البلغار حين كان ملكها قد طلب بعثة دينية بسبب دخول كثير من البلغار في الإسلام . ورأس هذه البعثة (ابن فضلان) ووضع كتاباً وصف فيه تلك البلاد وذكر عادات أهلها وأحوالهم . ومع الزمن وبقوة الدولة الإسلامية بدأت العلوم والمعارف في النضج عند العرب ، ومن بين هذه المعارف الجغرافيا الوصفية التي قامت على رحلة بعض المفكرين والأدباء لسبب أو لآخر ، فاطلعوا خلال رحلاتهم على أحوال البلاد وشاهدوا حياة أهلها وعاداتهم ، وكتبوا في مظاهر الحياة الطبيعية وغير الطبيعية . ومما تجدر الإشارة إليه أن غالبية هؤلاء الرحالة المؤلفين كانوا كتاباً قبل كل شيء ، فجاءت كتاباتهم يغلب عليها الطابع القصصي يستندون به إلى الواقع أحياناً ويجنحون إلى الخيال أحياناً أخرى ويحفلون فيه بالقصص للمتعة التي تسمو به إلى مرتبة الأدب الفني الصرف في أغلب الأحيان .

ونحن إذا أردنا أن نعرض ملامح من هذه المؤلفات على مر العصور ، فإننا نجد أن القرن العاشر الميلادي يمثل من هذه الناحية فترة النضج التام ، فقد زخر بمصنفات مهمة بلغت أوج التطور الخلاق كحركة مستقلة قائمة بذاتها ، إذ « تم في هذا القرن تشكيل ما يسمى بالمدرسة الكلاسيكية للجغرافيا العربية . . وقد بلغ عدد الرحالة في هذا القرن حداً كبيراً[١٠] » ، نذكر منهم إبن حوقل والمقدسي والإصطخري وأبا زيد البلخي والمسعودي الذي يعد أعظم الجغرافيين أصالة في هذا القرن . وقد يفسر هذا النضج ، على الرغم من الضعف السياسي للدولة الإسلامية بنضج الحضارة وتأصلها ، وبعدم فعالية هذا الضعف القائم على الإنقسام الداخلي ، لأنه لم يؤثر على وحدة البلاد الدينية والثقافية بخاصة . ويطلع علينا في القرن الحادي عشر إسم أبي الريحان محمد البيروني ، الذي كان قد التحق

بالسلطان محمود الغزنوي في غزنة سنة ١٠١٧ م حيث قام بعدة رحلات علمية في بلاد الهند التي قضى فيها نحو أربعين سنة ، ووضع كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة » ، ومع ذلك ، فهو كتاب يستحيل « اعتباره كتاباً جغرافياً ، بالمعنى الضيق للفظ . . فالمكانة الأولى عنده تحتلها الحضارة الروحية للهند ، وقليل من فصوله الثمانين يمس موضوعات جغرافية بحتة ، وهو ينتمي إلى طراز آخر من المؤلفات »[11] إذ هو أقرب إلى مصنفات البحوث العقلية منه إلى المصنفات الجغرافية .

وبعد القرن الحادي عشر ، وإن ظلت بعض المصادر الأدبية وخاصة الكتب التاريخية تزودنا بالمعارف الجغرافية المعتمدة على المعاينة ، فقد أخذت الكتب الجغرافية الصرف يتميز طابعها أكثر فأكثر بالتنسيق الأدبي للمواد الواردة في المصنفات المتقدمة . وبدأ بعد ذلك نمط آخر ينال القبول لدى الجمهور ، ذلك هو وصف الرحلات . « ولم تدون الرحلات على هيئة كتب (المسالك) المعروفة لنا ، بل دونت على هيئة مذكرات يومية مع تفاوت في الدقة فيما يتعلق بتدوينها من يوم لآخر . . وأول من وضع الأساس لهذا الفن حسب علمنا ، وكان ذلك قبل نصف قرن من ابن جبير ، هو الفقيه أبو بكر محمد ابن العربي (٤٦٨ ـ ٥٤٣ هـ : ١٠٧٦ ـ ١١٤٨ م) . وأصله من إشبيلية ، ولكن لم يلبث أن غادرها إلى المشرق بعد زوال دولة آل عباد . . وكان هدفه الدراسة (فطاف في الشام والعراق والحجاز ومصر وعاد إلى الأندلس) . . أما وصف رحلته فمفقود ، وكان يحمل عنوان ـ الرحلة ـ أو ترتيب الرحلة ـ وقد نقل عنه ابن خلدون والمقري »[12] . وجاء ابن جبير بعد ابن العربي ليؤصل هذا الإتجاه في كتابة الرحلة بصياغة أدبية عالية ، حتى ليمكن القول بأن كتب الرحلات تبدأ من هذا العهد برحلة ابن جبير ، وتلاه فيما بعد بحوالي قرنين ابن بطوطة ليقدم في ظروف خاصة نمطاً جديداً من الرحلات يختلف عن سابقه ، ابن جبير ، في

أنه نحا منحى الغرائب والخرافات في رحلته . وستكون هاتان الرحلتان من ضمن الرحلات التي سنعرض لها بالدراسة والنقد .

وكما سنرى ، فقد كان من أهم بواعث هذه الرحلات الحج ، وطلب العلم . وابتداء من القرن الثالث عشر يبدأ طابع الرحلة في (طلب العلم) يطغى على نمط الرحلة ، كما نشاهد في رحلة أبي محمد العبدري ، وابن عمر عبد الله بن رشيد التشريسي ، وفي هذا النمط من الرحلة يحتل الصدارة لدى صاحبها التعريف بأساتذته وبالعلماء الذين التقى بهم ووصف المكتبات ودور العلم التي زارها ، ونحا بعضهم هذا النمط من الرحلة منحى آخر ، إستند فيه الرحالة على أساس ترجمة حياته الشخصية (أوتو-بيوجرافيا) والتعريف بنفسه ، وقد يتحول فيه أحياناً إلى معجم للسير يترجم فيه ، لشيوخه وللعلماء الذين التقى بهم وإلى معرض لمختارات أدبية تعطي فكرة جيدة عن الذوق الأدبي لعصره،وأكثر من يمثل هذا الإتجاه عبدالرحمن بن خلدون في كتابه «التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً»،وسيكون هو الآخر موضع دراسة ونقد في هذه الدراسة كمثال على هذا الإتجاه.

وهكذا فقد شهدت القرون التالية لابن جبير كثيرين من الرحالة الذين أغنوا الأدب العربي وبعض العلوم العربية الأخرى بما كتبوه في رحلاتهم من أمثال عبد اللطيف البغدادي وياقوت الحموي وابن سعيد والعبدري في القرن الثالث عشر ، وابن بطوطة وابن خلدون ومحمد بن رشيد الفهري الأندلسي ومحمد التجاني في القرن الرابع عشر ، ثم رحلة الظاهري والملك قايتباي في القرن الخامس عشر ، وحتى هذا القرن فقد ظل العرب متفوقين في ميدان الرحلات إلى أن قامت حركات الإستكشاف الأوروبية ، وكان العرب قد منوا بفترة من التأخر إمتدت ثلاثة قرون أو يزيد ، عمَّ خلالها

الضعف والجهل في جميع ميادين الحياة ، وانصرف الكثيرون عن الحياة إلى الزهد ولم يصلنا خلال هذه القرون شيء ذو بال من الرحلات ، فقد اقتصرت إلى حد كبير على زيارة إستانبول عاصمة الخلافة العثمانية أو على الحج وزيارة الأماكن المقدسة الإسلامية والمسيحية . ومن أبرز هذه الرحلات رحلة عبد الله المراكشي العياشي ، ورحلة عبد الغني النابلسي ورحلة علي الجبيلي ، وظل هذا الجمود العام يطبق على أدب الرحلة في جملة ما يطبق عليه من حياة الأمة العربية حتى كانت النهضة الحديثة ففتحت على أساسها أبواب أوروبا على البلاد العربية ، وراح الكثيرون من أبنائها يرحلون إلى تلك البلاد طلباً للعلم أو العمل أو السياحة أو غيرها ، فبدأ أدب الرحلة ينتعش ، وبدأت زهوره في التفتح من جديد . وكان فيض عميم من هذا الأدب ، في القرنين الأخيرين . ومن أبرز أصحابه في القرن الماضي الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي ، وشهاب الدين الألوسي ، وعبد الله فكري ، وأحمد فارس الشدياق ، وسليمان البستاني ، وسوف نعرض إلى رحلة كل من الطهطاوي والشدياق في هذه الدراسة . أما في القرن العشرين فقد زاد الإتصال وتعمقت آثاره ، ونضجت العلوم والتفكير أكثر مما كان عليه ، وزاد الوعي واليقظة ، وكثر الرحالون من أمثال محمد الخضر حسين ، والورتتاني ، والبتانوني ، ومحمد حسين هيكل ، وطه حسين ، وحسين فوزي ، وأمين الريحاني وكثيرون غيرهم . ولسوف نعرض إلى الرحلات التي تخيرناها نماذج على هذا الأدب عند العرب لنقف على دوافع أصحابها ، ونوع اهتمامهم بالأمور ، ومدى عمق نظرهم إليها ، وسنعرض في هذا المجال أيضاً إلى أسلوب الرحالة في رحلته وإلى تقويم عام لكل رحلة ، لنقف على قيمة هذا الأدب ، واتجاهاته وتطوراته[١٣] .

الهوامش :

(١) كتبت هذه الدراسة قبل أن يطأ الإنسان أرض القمر .

(٢) كالظن ، على غرار اليونان ، بأن المعمور من الأرض هو ربعها فقط وذلك في النصف الشمالي منها ، وكالاعتقاد باستحالة الحياة في البلاد الشديدة الحرارة والقارسة البرودة ، وبوجود سلسلة جبلية تنتظم الأرض من الغرب إلى الشرق ، وبأن بعض الأنهار (كالنيل) تسقط من منابعها في الجنة .

(٣) شوقي ضيف ، الرحلات (فنون الأدب العربي ، طبعة دار المعارف) : ٦

(٤) اغناطيوس كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي قسم ١ ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم . (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) : ٢٤

(٥) نقولا زيادة ، الرحالة العرب (دار الهلال ١٩٥٦) : ٣٨

(٦) جويدي ، محاضرات أدبيات الجغرافيا والتاريخ واللغة عند العرب (مجموعة محاضرات ألقاها في الجامعة المصرية بين عامي ١٩٠٨ ، ١٩٠٩) : ١٣

(٧) هي رحلة قام بها ثمانية رجال من أبناء إشبونه (لشبونة) في القرن الرابع للهجرة (العاشر الميلادي) غرروا بأنفسهم ، فطافوا في بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) لمدة بضعة أشهر تقاذفتهم خلالها الأقدار والأمواج من جزيرة إلى أخرى . وبعد أهوال ومخاطرات عادوا إلى بلدهم ، فأطلق عليهم الناس اسم الفتية المغررين ، يقصدون أنه غرر بهم في مجازفات ومغامرات غير مجدية . والمظنون أنهم وصلوا إلى بعض الجزائر في المحيط الأطلسي ، ولعلهم وصلوا إلى جزائر أزورا وكناري .

لمعرفة المزيد عن هذه الرحلة ، انظر كتاب (المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس) المأخوذ من كتاب ـ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » للشريف الإدريسي . (طبعة ليدن ١٨٦٣) : ١٨٤ - ١٨٥ .

(٨) دائرة المعارف الإسلامية ، مجلد ٧ ـ مادة : جغرافيا ، صفحة : ١٠

(٩) انظر خبر هذه الرحلة في كتاب « المسالك والممالك » لابن خرداذبة . (طبعة مكتبة المثنى ببغداد) : ١٦٢ ـ ١٧٠ .

(١٠) اغناطيوس كراتشكوفسكي ، المرجع السابق : ١٧٧

(١١) م . ن : ٢٩٧ ـ ٢٩٨

(١٢) م . ن : ٢٥٥ ـ ٢٥٦

(١٣) في أدب الرحلة عند العرب في القرن العشرين : لنا كتاب « أمين الريحاني وأدبه في الرحلة » ، نرجو أن يصدر قريباً .

١ ـ رحلة ابن جبير

هي رحلة قام بها أبو الحسن محمد بن أحمد ابن جبير الكتاني الأندلسي ليحج بيت الله الحرام ، فخرج من غرناطة في الثامن من شوال سنة خمسمائة وثمان وسبعين للهجرة ـ ثلاث وثمانين ومائة بعد الألف ميلادية ـ وقد استغرقت رحلته مذ خرج من غرناطة إلى حين عودته إليها سنتين وثلاثة أشهر ونصفاً ، مرّ فيها على مصر والديار الحجازية حيث بقي فيها بضعة أشهر ، وعرج ، بعد أداء الفريضة ، في طريق عودته على بلاد العراق والشام ، ومنها سافر بحراً عن طريق صقلية فوصل بلاده في الخامس عشر من محرم سنة خمسمائة وواحد وثمانين للهجرة . ولا يهمنا أن نتابع ابن جبير في طريق رحلته ذهاباً وإياباً ، فذلك مدوّن في أخبار الرحلة وفيما كتب حولها ، وهو ليس من مهمة هذه الدراسة على أية حال . وإنما الذي يهمنا في الحقيقة أن نسجل بعض الملاحظات والإنطباعات عن هذه الرحلة في سياق مكتبة أدب الرحلة عند العرب . فزمن الرحلة كما يبدو من تاريخها وكما أشار صاحبها في مصر والشام كان في أيام احتلال الصليبيين لبلاد الشام ، أيام كان السلطان صلاح الدين في مصر يعد ويعمل على صدهم وطردهم من هذه البلاد . وصاحب الرحلة ، كان رجلاً متفقهاً في أواخر العقد الرابع من عمره ، فهو مولود في سنة ٥٤٠ هـ ، وكان قريباً من بلاط الحكم في غرناطة إذ ألحقه حاكمها أبو عثمان سعيد ابن عبد المؤمن بكتّاب ديوانه بعد أن لمع اسمه هناك ، وهو يدون أخبار رحلته هذه على صورة مذكرات

يومية ـ يستعمل فيها دائماً التاريخين القمري (مع السنة الهجرية) والشمسي (دون ذكر السنة) ـ أراد ككاتب أن يحفظ فيها بعض صور هذه الرحلة التي قامت عليها شهرته الأدبية بين الأجيال التالية . وفي الغالب ، فإن ابن جبير لم يكن ينوي نشر هذه الرحلة ولم يكن يتوقع لها هذا الذيوع ، وإلا كان وضعها في كتاب متسلسل مطرد . ولربما كان تسجيله هذه المذكرات لمجرد إطلاع سيده بعد العودة على مشاهداته في بلاد المسلمين والديار المقدسة وانطباعاته عن أهلها خلال فترة غيابه عنه . ويؤيد هذا ما يقوله ابن الخطيب عن أبي الحسن الشاري من أن بعض تلاميذ ابن جبير هو الذي نسق هذه المذكرات وفقاً لمراحل الرحلة[1] . فابن جبير ، كما يبدو ، لم يكن يخطر في باله أن يكتب أدب رحلة بقدر ما كان ينوي أن يضع شبه تقرير يرفعه إلى سيده أبي عثمان . ولكن طول الزمن الذي استغرقته الرحلة جعل صاحبها يستمرىء التدوين ويتوسع فيه ، ثم كان لغلبة الصبغة الأدبية الواضحة على ابن جبير ، والتنسيق الذي أصاب هذه المذكرات أو هذا التقرير ان ارتفع به وعن جدارة ، إلى مصاف أدب الرحلة القيم ، ويزيد في كفة ترجيح هذا الرأي أن صاحب الرحلة قام بعدها برحلتين أخريين حج فيهما وزار الديار المقدسة ولم يكتب عن هاتين الرحلتين شيئاً . وكان بإمكانه ، لو توفر فيه روح الرحالة الأصيل أن يقارن بين أحوال البلاد وشعور المسلمين خلال السنوات التي فصلت بين زياراته الثلاث من ٥٧٨ وحتى ٦١٤ هـ ، لا سيما وقد كان صلاح الدين قد انتصر على الصليبيين واسترجع بيت المقدس ، وزارها ابن جبير وعلم الإسلام يرفرف فوقها ، ولكنه لم يفعل . ثم إن الشهرة التي نالها ابن جبير من وراء هذه الرحلة ، دون أن يعرف له أثر أدبي سواها ، قد تقوّي هذا الزعم وتفسح له مكاناً ما قيل في هذه الرحلة . وعلى أية حال ، فليس المقصود انتقاص شيء من قيمة الرحلة سواء صح هذا الزعم أم لم يصح ، فلسوف تبقى في ذروتها السامقة

نموذجاً لا ينازع على أفضل ما كتب في أدب الرحلة الخالص في العصور الوسطى . ولعل فيما زعمته سالفاً ، مع ما يتسم به ابن جبير من سمات شخصية ، أثراً في تخليص رحلته من كثير مما صبغ رحلات سابقيه من تداخل واسع بين شتى الموضوعات وبذلك اتسمت بطابع أدبي أنقى ، فكانت أكثر آثار العصور الوسطى قيمة في هذا المجال ، مجال أدب الرحلة ، لما امتازت به من إتقان وجودة ، ونفحات أدبية .

ومن الملاحظ أن ابن جبير وإن كان من رجال الديوان في غرناطة ، إلا أنه لم يشر أدنى إشارة إلى أنه عومل أثناء رحلته ، سواء في معاملات السفر أم في النزول والقيام ، معاملة خاصة أو رسمية ، فهو مع صحبه ، كأي حاج آخر يفتش كما يفتشون في الإسكندرية . بل إنه يقدم عليه فيها (أحمد بن حسان) صاحبه في الرحلة ليسأل عن أحوال المغرب ، فهل كان (أحمد) هذا مقدماً في الحاج المغربي أكثر من ابن جبير ؟؟ ، يبدو أن ابن جبير كان وقتها شخصاً عادياً لم تقم له أية شهرة في العالم الإسلامي ، ولم لا ، فرحلته لم تكن قد كتبت بعد ، بل لم تكد تبدأ !! وهذا على عكس ما سنرى مع ابن بطوطة الشاب ، الذي يسجل لنا آيات تكريمه لدى السلاطين والأمراء ، ويذكر كتب التوصية به من أحدهم إلى الآخر ، وهكذا كان ابن جبير في هذه الرحلة شخصاً عادياً ، وإنما يحكمه ، كما يقرأ من سطور رحلته ، كونه عالماً فقيهاً يولي المساجد وقبور الصحابة والأولياء جل عنايته واهتمامه ، ففي كل بلد يحل فيه يشغل نفسه كثيراً في إحصاء مساجده ، ووصف المشهور منها ، وفي زيارة قبور الصحابة والصالحين وإطالة الحديث عنها ، ففي القاهرة يقف طويلاً عند القرافة فيها ويعدد ما فيها من قبور ومشاهد . ويزور قبر الحسين ، ويقف أمامه مبهوراً لكثرة الطائفين حوله وتقديسهم له ، فيعجزه التحرج الديني من التعرض لوصفه . وفي رأيي أن هذا التحرج الذي يشف من بين سطور الرحلة عن

وقار العالم وشيء من تزمت الفقيه حد من فيض الأحاسيس لدى الأديب ، إن لم يكن شلها إلى حد كبير ، فجعله يتحدث من خلال عقل الرجل المتدين وحسب ، فحرمنا ما كان ممكناً أن يفيض فيه الرحالة من وصف للطريق الطويل في البر وفي البحر : في مناظره ومشاهده وأناسيه المختلفي السحن ، المتبايني الأهواء .

وفي الحالات النادرة التي تعرض فيها ابن جبير لما يمكن أن يكون مجالاً لوصف المشاعر واستثارتها ، بقيت مشاعره حبيسة رزانة الفقيه ، وطيبته المتدينة ، فهو يكتفي في وصف البحر وقد سكن بأنه « يخيل لناظره أنه صحن زجاج أزرق »[٢] ، ويتحدث عن مهارة النواتية في التصرف بالمراكب بين الشعاب ، فيكتفي بالقول « ويدخلونها على مضايق ويصرفونها خلالها تصريف الفارس للجواد الرطب العنان ، السلس القياد ، ويأتون في ذلك بعجب يضيق الوصف عنه »[٣] . وليس هذا وحسب ، وإنما تبدو هذه الأغلال التي يغل بها مشاعره عن الإنفلات في وصفه الطوافين حول قبر الحسين في القاهرة إذ يقول « وشاهدنا من استلام الناس للقبر المبارك ، وإحداقهم ، وانكبابهم عليه ، وتمسحهم بالكسوة التي عليه ، وطوافهم حوله مزدحمين داعين متوسلين إلى الله سبحانه وتعالى ، ببركة التربة المقدسة ومتضرعين ما يذيب الأكباد ، ويصدع الجماد ، والأمر فيه أعظم . ومرأى الحال أهول ، نفعنا الله ببركة ذلك المشهد الكريم . وإنما وقع الألماع بنبذة من وصفه مستدلاً على ما وراء ذلك ، إذ لا ينبغي لعاقل أن يتصدى لوصفه ، لأنه يقف موقف التقصير والعجز . وبالجملة فما أظن في الوجود كله مصنعاً أحفل منه ، ولا مرأى من البناء أعجب ولا أبدع ، قدس الله العضو الكريم الذي فيه بمنّه وكرمه»[٤] .

وهذه الأحكام التعميمية تكاد تقترب في عددها لدى رحالتنا من عدد

الموضوعات التي تعرض لها ، وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على طيبة متناهية فيه ، وعلى سلامة طوية دفعتا به إلى هذا الإفراط ، والتعميم في الأحكام ، فكل ما يعجب به غاية لا يستطيع وصفها الواصفون ، فها هو ذا ، وقبل أن يصل مكة ويرى مقدساتها ، يحكم ، وهو لم يزل في بداية رحلته ، بأن لا مصنع في الوجود أحفل من قبر الحسين في القاهرة مما يعجز عنه الوصف ، ويحكم بعدها بأن عدد الحجاج لا يحصيه إلا الله ولم يوجد مثله في أي عام آخر . ويطيل المكث في مكة ، إذ يظل فيها ثمانية أشهر وثلثاً من ١٣ ربيع الآخرة سنة ٨٧٩ إلى الخميس ٢٢ذي الحجة من السنة نفسها ، ويستغرق وصف الأماكن المقدسة ومشاعر الحج فيها جزءاً كبيراً من رحلته ، فيصف الكعبة والمسجد الحرام وصفاً دقيقاً مفصلاً ولكنه وصف أصم يصلح لأن يقيم به مهندس معماري نموذجاً أو خريطة لموصوفاته ، إذ هو للأسف ، خلو من شعور الواصف وأحاسيسه أو من أي تصوير لأحاسيس الناس في هذا الموقف العظيم . وكذلك هو وصفه لكل المساجد والأماكن الدينية التي تعرض للكلام عليها في المدينة أو في دمشق أو حلب أو في غيرها ، يقول في وصف جامع حلب: « وهذا الجامع من أحسن الجوامع وأجملها ، قد أطاف بصحنه الواسع بلاط متسع ، مفتح كله أبواباً قصرية الحسن ، إلى الصحن ، عددها ينيف على الخمسين باباً ، فيستوقف الأبصار حسن منظرها . وفي صحنه بئران معينان . والبلاط القبلي لا مقصورة فيه ، فجاء ظاهر الإتساع رائع الإنشراح وقد استغرقت الصنعة القرنصية جدها في منبره ، فما أرى في بلد من البلاد منبراً على شكله ، وغرابة صنعته . واتصلت الصنعة الخشبية منه إلى المحراب ، فتجللت صفحاته كلها حسناً ، على تلك الصنعة الغريبة . وارتفع كالتاج العظيم على المحراب وعلا حتى اتصل بسمك السقف ، وقد قوس أعلاه وشرف بالشرف الخشبية القرنصية ، وهو مرصع كله بالعاج والأبنوس . . . فتجتلي

العيون منه أبدع منظر يكون في الدنيا . وحسن هذا الجامع المكرم أكثر من أن يوصف »[٥] . والمرة الفريدة التي تكاد مشاعره فيها أن تفلت من أغلالها يصف فيها جماعة السرو ، وهم قبائل من اليمن يعيشون في جبال السراة ، لفتوا انتباهه في صخبهم وكثرة ازدحامهم وهم يدخلون البيت العتيق ، وفي حركاتهم وتصرفاتهم أثناء الصلاة ، يقول « . . . فازدحم السرو للدخول على العادة ، فجاؤوا بأمر لم يعهد فيما سلف ، يصعدون أفواجاً حتى يغص الباب الكريم بهم ، فلا يستطيعون تقدماً ولا تأخراً ، إلى أن يلجوا على أعظم مشقة ، ثم يسرعون الخروج ، فيضيق الباب الكريم بهم ، فتنحدر الفوج منهم على المصعد ، وفوج أخرى صاعدة فيلتقيان ، وقد ارتبط بعضهم إلى بعض ، فربما حمل المنحدرون في صدور الصاعدين ، وربما وقف الصاعدون للمنحدرين وتضاغطوا ، إلى أن يميلوا ، فيقع البعض على البعض ، فيعاين النظارة منهم مرأى هائلاً : فمنهم سليم ، وغير سليم ، وأكثرهم إنما ينحدرون وثباً على الرؤوس والأعناق »[٦] .أما كيف يكون شعور النظارة وحكمهم على هذا المرأى الهائل ، فابن جبير يسكت عنه ولا يفصح . وعن صلاة السرو أيضاً يقول لنا « وأما صلاتهم فلم يذكر في مضحكات الأعراب أظرف منها ، وذلك أنهم يستقبلون البيت الكريم ، فيسجدون دون ركوع ، وينقرون بالسجود نقراً ، ومنهم من يسجد السجدة الواحدة ، ومنهم من يسجد اثنتين والثلاث والأربع ، ثم يرفعون رؤوسهم من الأرض قليلاً ، وأيديهم مبسوطة عليها ، ويلتفتون يميناً وشمالاً التفات المروع ، ثم يسلمون أو يقومون دون تسليم ولا جلوس للتشهد ، وربما تكلموا أثناء ذلك ، وربما رفع أحدهم رأسه من سجوده إلى صاحبه وصاح به ، ووصاه بما شاء ثم عاد إلى سجوده ، إلى غير ذلك من أحوالهم الغريبة »[٧] . والغالب أن الوصف لديه يخلو من الحركة والحياة ، فلا يكاد يشي بشيء من نبض الشعور ، ونفث الحياة ، فما هو إلا آلة

تصوير ، تنطبع الأشياء على قلمه كما تنطبع صورها على عدستها . والحق فإنه ماهر في هذا ومجيد ولكنه مع ذلك يفقد كثيراً من عناصر الجمال في الوصف الحي . ومن أحسن ما كتبه ابن جبير في الوصف وصفه المدن والآثار والمدارس والمستشفيات. ومن أبرز عناصر الصنعة الأدبية في هذا الوصف إفتتاحه الكلام على المدن المهمة خاصة بفقرة مجودة مجملة . . تتزين بالسجع والجناس ، إذ تلقى منه احتفالاً كبيراً ، فيدبج فيها فقرة أو بضع فقرات في عبارة أدبية أنيقة ولكنها على أية حال ، تظل داخل إطاره المخصوص في الوصف . يقول مثلاً في وصف مدينة نصيبين « شهيرة العتاقة والقدم ، ظاهرها شباب ، وباطنها هرم ، جميلة المنظر ، متوسطة بين الكبر والصغر ، يمتد أمامها وخلفها بسيط أخضر مد البصر ، قد أجرى الله فيه مذانب من الماء تسقيه وتطرد في نواحيه ، وتحف بها عن يمين وشمال بساتين ملتفة الأشجار ، يانعة الثمار ، ينساب بين يديها نهر وقد انعطف عليها انعطاف السوار ، والحدائق تنتظم بحافتيه ، وتفيء ظلالها الوارفة عليه ، فرحم الله أبا نواس الحسن بن هانيء حيث يقول :

طابت نصيبين لي يوماً فطبت لها

يا ليت حظي من الدنيا نصيبين

فخارجها رياضي الشمائل ، أندلسي الخمائل ، يرف غضارة ونضارة ، ويتألف عليه رونق الحضارة ، وداخلها شعث البادية باد عليه ، فلا مطمح للبصر إليه لا تجد العين فيه فسحة مجال ، ولا مسحة جمال »[8] . وهكذا تراه في مثل هذا الوصف ،كأنه طالب ناضج يكتب موضوعات في الإنشاء ، وهو في ذلك إنما يمثل الطابع العام للكتابة في عصره. ومع هذا فإن الوصف لديه يكون جزءاً مهماً من خصائص كتابته في هذه الرحلة ، ينجح فيه على هذا المستوى إلى حد بعيد . وفي رأيي ان النجاح الأهم الذي يسجله

ابن جبير في رحلته إنما هو في مجال الحياة الإجتماعية فهو ينظر دائماً إلى أحوال الناس ومستشفياتهم ومدارسهم . وفي هذا المجال تتجلى قدرته على الملاحظة وملكته في النقد والحكم ، ولا غرو فهو على الأغلب ذو خبرات في الحياة ناضجة ، بحكم عمله وسنه ، فلا يتحرج من إصدار الأحكام أو شبهها في بعض الأحوال . ففي كلامه على أهل (عيذاب) وتحكمهم في الحجاج وشظف الحياة التي يحيونها يقول « . . ولأهل عيذاب في الحجاج أحكام الطواغيت . وذلك أنهم يشحنون بهم الجلاب(*) حتى يجلس بعضهم على بعض وتعود بهم كأنها أقفاص الدجاج المملوءة ، يحمل أهلها على ذلك الحرص والرغبة في الكراء حتى يستوفي صاحب الجلبة منهم ثمنها في طريق واحدة ، ولا يبالي بما يصنع البحر بها بعد ذلك ، ويقولون : « علينا بالألواح ، وعلى الحجاج بالأرواح » وهذا مثل متعارف بينهم . فأحق بلاد الله بحسبة يكون السيف درتها ، هذه البلدة ، والأولى بمن يمكنه ذلك ألا يراها ، وأن يكون طريقه على الشام إلى العراق ، ويصل مع أمير الحاج البغدادي . . وإن أطال طريقه بهذا التحليق فيهون عليه لما يلقى بعيذاب ونحوها(٩) . . فالحلول بها من أعظم المكاره التي حف بها السبيل إلى البيت العتيق ، والحياة فيها على قدر كبير من الشظف والمشقة ، ويصفها بقوله « . . حسبك من بلد كل شيء فيه مجلوب حتى الماء ، والعطش أشهى إلى النفس منه ، فأقمنا بين هواء يذيب الأجسام ، وماء يشغل المعدة عن اشتهاء الطعام ، فما ظلم من غنى عن هذه البلدة بقوله : (ماء زعاق وجو كله لهب)(١٠) . وبالإضافة إلى هذه الحياة فيها ، فأهلها ألفوا بها عيش البهائم ، وهم أقرب إلى الوحش منهم إلى الأنس ، وهم « أضل من الأنعام سبيلاً ، وأقل عقولاً ، لا دين لهم سوى كلمة التوحيد التي ينطقون بها إظهاراً للإسلام ، ووراء ذلك من مذاهبهم الفاسدة وسيرهم ما لا يرضى ولا يحل ، ورجالهم ونساؤهم يتصرفون عراة ، إلا خرقاً يسترون بها

* الجلاب : المراكب

عوراتهم وأكثرهم لا يسترون . وبالجملة فهم أمة لا خلاق لهم ولا جناح على لاعنهم »[11] . وكما كان في هذا الموقف مدفوعاً بعقله وعلمه ، فلعن أهل عيذاب ، وجعله أضل سبيلاً من الأنعام ، ودعا إلى إعلان مقاطعتهم بتغيير طريق الحاج عنهم ما أمكن ، فإننا نراه يقف بعاطفته موقفاً آخر مختلفاً من أهل جده فيحنو ويشفق عليهم ، خاصة وأن أكثرهم علويون ، « وهم من شظف العيش بحال يتصدع له الجماد إشفاقاً ، يستخدمون أنفسهم في كل مهنة من المهن : من إكراء جمال إن كانت لهم ، أو مبيع لبن أو ماء ، إلى غير ذلك من تمر يلتقطونه ، أو حطب يحتطبونه . وربما تناول ذلك نساؤهم الشريفات بأنفسهن فسبحان المقدر لما يشاء . ولا شك أنهم أهل بيت ارتضى لهم الآخرة ، ولم يرتض لهم الدنيا . جعلنا الله ممن يدين بحب أهل البيت ، (الذين) أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً »[12] . وقد لا يكون هذا الموقف غريباً لا سيما من مغربي يزور المشرق حاجاً . ولكن الغريب هو ما يصف به أهل بغداد من رياء ونفاق ، وطمع وضلال ، فهل كان حكمه فيهم صادقاً يا ترى ، أو أنه صادر عن حالات فردية أخطأ في تعميمه عنها ، خصوصاً وهو لم يقم فيها إلا فترة وجيزة لم تتجاوز إثني عشر يوماً من يوم الأربعاء الثالث من صفر سنة ٥٨٠ هـ إلى يوم الإثنين الخامس عشر لنفس الشهر ، يقول فيهم بعد أن يصفها كما رآها في زمانه « وأما أهلها فلا تكاد تلقى منهم إلا من يتصنع بالتواضع رياء ، ويذهب بنفسه عجباً وكبرياء ، يزدرون الغرباء ، ويظهرون لمن دونهم الأنفة والإباء ، ويستصغرون عمن سواهم الأحاديث والأنباء ، قد تصور كل منهم في معتقده وخلده ، إن الوجود كله يصغر بالإضافة لبلده ، فهم لا يستكرمون في معمور البسيطة مثوى غير مثواهم ، كأنهم لا يعتقدون أن لله بلاداً أو عباداً سواهم ، يسحبون أذيالهم أشراً وبطراً ، ولا يغيرون في ذات الله منكراً ، يظنون أن أسنى الفخار في سحب الأزار ، ولا يعلمون أن

فضله بمقتضى الحديث المأثور في النار ، يتبايعون بينهم بالذهب قرضاً ، وما منهم من يحسن لله فرضاً ، فلا نفقة فيها إلا من دينار تقرضه ، وعلى يدي مخسر للميزان تعرضه ، ولا تكاد تظفر من خواص أهلها بالورع العفيف ، ولا تقع من أهل موازينها ومكاييلها إلا على من ثبت له الويل في سورة التطفيف ، لا يبالون في ذلك بعيب كأنهم من بقايا مدين قوم النبي شعيب . فالغريب فيهم معدوم الإرفاق ، متضاعف الإنفاق لا يجد من أهلها إلا من يعامله بنفاق ، أو يهش إليه هشاشة انتفاع واسترفاق، كأنهم من التزام هذه القبيعة على شرط اصطلاح بينهم واتفاق . فسوء معاشرة أبنائها ، يغلب على طبع هوائها ومائها ، ويعلل حسن المسموع من أحاديثها وأبنائها . أستغفر الله إلا ففهاءهم المحدثين ، ووعاظهم المذكرين »[١٣] . وقد ساء ابن جبير بعض ما شاهده من شؤون الحكام والمسؤولين في البلاد الإسلامية ، فأعلن تذمره من بعض تصرفاتهم كتفتيش رجال الجمارك للحجاج ومحاسبة (مردة) أعوان الزكاة لهم على ما معهم من مال أو متاع دون نظر إلى أحقية النصاب ، ومنهم من تجب الزكاة لهم لا عليهم ، وقد نظر إلى المسألة من وجهة نظر تشف عن شعور إنساني بالإضافة إلى النظر الديني حيث يقول « . . وقد نهى الله عن التجسس ، فكيف عن الكشف لما يرجى ستر الصون دونه ، من حال لا يريد صاحبها أن يطلع عليها ، أما استحقاراً أو استنفاساً ، دون بخل بواجب يلزمها »[١٤] . ومما زاد في سخطه ما شهده من ظلم الحكام المسلمين لرعاياهم وللحجاج المسلمين وفي الحجاز بخاصة[١٥] . وصور بعض جوانب حياة المسلمين تحت حكم الإفرنج من الصليبيين ، وضاعف من سخطه على الحكام المسلمين ما رآه من حسن الحال بين الصليبيين والمسلمين من أهالي البلاد تحت أيديهم ، فقال في ذلك « وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم لما يبصرون عليه إخوانهم من أهل رساتيق المسلمين وعمالهم ، لأنهم على ضد

أحوالهم من الترفيه والرفق . وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين : أن يشتكي الصنف الإسلامي جور صنفه المالك له ، ويحسد سيرة ضده وعدوه المالك له من الإفرنج ، ويأنس بعدله فإلى الله المشتكى من هذه الحال »[١٦] .
وللرحلة قيمة فريدة من هذه الناحية فيما يتعلق بتصويرها حياة المسلمين في صقلية ، حيث عرج عليها في طريق عودته ، وبقي هناك فترة يرقب عن كثب مظاهر الحضارة المادية والروحية للمسلمين فيها . ولقد برز إبن جبير الفقيه في د ... الرحلة في حكمه على أحوال الحجاز أيام حكم أمير مكة الظالم (مكثر بن عيسى) حيث يقول « فأحق بلاد الله بأن يطهرها السيف ويغسل أرجاسها وأدناسها ، بالدماء المسفوكة في سبيل الله ، هذه البلاد الحجازية ، لما هم عليه من حل عرى الإسلام، واستحلال أموال الحاج ودمائهم »[١٧] حتى ليبلغ به الأمر حد القول « فمن يعتقد من فقهاء أهل الأندلس إسقاط هذه الفريضة عنهم ، فاعتقاده صحيح لهذا السبب ، وبما يصنع بالحاج مما لا يرتضيه الله عز وجل . فراكب هذا السبيل راكب خطر ، ومعتسف غرر ، والله قد أوجد الرخصة فيه على غير هذه الحال ، فكيف وبيت الله الآن بأيدي أقوام قد اتخذوه معيشة حرام ، وجعلوه سبباً إلى استلاب الأموال واستحقاقها من غير حل ، ومصادرة الحجاج عليها ، وضرب الذلة والمسكنة الدنية عليهم ، تلافاها الله عن قريب بتطهير يرفع هذه البدع المجحفة عن المسلمين ، بسيوف الموحدين أنصار الدين »[١٨] .

ومع ما قد يكون في أحكامه هذه من غلو وقسوة إلا أنه كان متديناً مستنيراً إلى حد بعيد ، فلم يكن متعصباً لمذ... ... أعمى ، وإن ظهرت بساطته في كثرة لجوئه إلى الله في حالاته من الرضى والغضب ، والإعجاب والاستنكار والاطمئنان والفراغ ودليلنا على ذلك بعض ما يذكره من معتقدات شعبية يأبى هو أن يصدقها أو يأخذ بها ، فيفسرها ويبين مواضع الخلل فيها ، حتى ليبلغ به الأمر أن يقيس مع آخرين إرتفاع ماء زمزم

ليدحض ما يشيع بين الناس على سوالف الأزمنة من زيادة ماء زمزم سبعة أذرع لبركته . وكذلك لومه على من شهدوا زوراً برؤية الهلال طمعاً في أن يكون العيد والوقوف في عرفة يوم جمعة « كأن الحج لا يرتبط إلا بهذا اليوم بعينه » ، ومثل هذا أمور كثيرة يعارض فيها المعتقد الشعبي السائد .
ولكنه ، مع ذلك ، لا يسلم من بعض الهفوات التي لم يخطر بباله تفسيرها كأن يقول في الحجر الأسود « وللحجر عند تقبيله لدونة ورطوبة ، ينعم بها الفم ، حتى يود اللاثم أن لا يقلع فمه عنه ، وذلك خاصة من خواص العناية الإلهية »[١٩] ، متناسياً قول عمر فيه (والله لولا أني رأيت رسول الله يقبله لما قبلته) ، ومتجاهلاً أو جاهلاً بالفعل الحال النفسية التي يقبل بها الحاج ذلك الحجر . وكذلك فإن ابن جبير لم يسلم من تأثير الخرافات الشعبية من مثل تصديقه بقاء أثر دم هابيل في جبل قاسيون بدمشق « وقد أبقى الله منه في الجبل آثاراً حمراً في الحجارة ، تحك ، فتستحيل ، وهي كالطريق في الجبل ، وتنقطع عند المغارة (مغارة الدم) ، وليس يوجد في النصف الأعلى من المغارة آثار تشبهها »[٢٠] . ومثل هذا ما قد يمثل أمانيه الحقيقية في انتصار الدعوة المؤمنية الموحدية ، هذه الأماني التي أعمته عن الخرافة التي تقول « أن بين جامع ابن طولون والقاهرة برجين مقتربين عتيقي البناء ، على أحدهما تمثال ناظر إلى جهة المغرب ، وكان على الآخر تمثال ناظر إلى المشرق . فكانوا يرون أن أحدهما إذا سقط ، أنذر بغلبة أهل الجهة التي كان ناظراً إليها على ديار مصر وسواها . وكان من الاتفاق العجيب أن وقع التمثال الناظر إلى المشرق ، فتلا وقوعه استيلاء الغز (جنس من الترك ، ويريد صلاح الدين وجيشه) على الدولة العبيدية (الفاطمية) ، وتملكهم ديار مصر وسائر البلاد وهم الآن متوقعون سقوط التمثال الغربي ، وحدثان ما يؤملونه من ملكة أهله لهم إن شاء الله . ولم يبق إلا الكائنة السعيدة من تملك الموحدين لهذه البلاد . . ونمي إلينا أن بعض فقهاء هذه البلاد المذكورة

وزعمائها قد حبر خطباً أعدها للقيام بها بين يدي سيدنا أمير المؤمنين ، أعلى الله أمره ، وهو يرتقب ذلك اليوم ارتقاب يوم السعادة ، وينتظره انتظار الفرج بالصبر الذي هو عبادة . والله عز وجل يبسطها من كلمة ، ويعليها من دعوة إنه على ما يشاء قدير »[٢١] . وإذا عرفنا أن ابن جبير قد أشاد كثيراً بحكم صلاح الدين الأيوبي ودعا له ، وعذره عن ظلم عماله بعدم معرفته بذلك وبانشغاله في حرب الصليبين ، ومجده كثيراً لعنايته بالحجاج بعامة وبالمغاربة بخاصة ، وهم وجدوا عطفاً كبيراً منه طوال رحلته ، فإننا نعجب لهذا الموقف المتناقض الذي وقع فيه . فهل يكون أضاف الخبر أو خطر بباله أن يضيفه بعد عودته إلى سيده في غرناطة أو أن الخبر زيد من بعض تلاميذه ؟ ولكن قد لا يكون بعيداً أن تعظيمه لصلاح الدين لم ينف حبه لسيادة أسياده الموحدين وطمعه في حكمهم للعالم الإسلامي .

بقي أن أشير أخيراً إلى أسلوب ابن جبير في رحلته . ويرى البعض أن « وصفه المفصل للأبنية وإن كان مملاً للقارىء العادي فإن أسلوبه يمتاز بالكثير من الحيوية وسهولة التعبير . . أما عرضه العام فيستهدف الصنعة والأناقة ، وهو كثيراً ما يلجأ إلى السجع الذي يعالجه بالكثير من المهارة دون أن يبالغ فيه أو يضطر القارىء إلى تكلف الجهد في تفهمه . كما يشحن كتابته بالإقتباسات الأدبية والإشارات اللطيفة مما يتطلب درجة معينة من المعرفة والاطلاع حتى يضحى مفهوماً للقارىء »[٢٢] .

ويأخذ عليه الدكتور حسين نصار ، محقق الرحلة عدة مآخذ، منها : عبارته العامية التي لا ترضى عنها اللغة الفصيحة ، ويرد ذلك إلى كتابتها على صورة مذكرات ثم تنسيق هذه المذكرات فيما بعد على يده أو يد أحد تلاميذه . ومنها كذلك اختلال الضمائر فهي لا تسير وفقاً للقواعد العربية الفصيحة ، وإنما على القواعد العامية وخاصة في المثنى الذي يعامل كالمؤنث

في أغلب المواضع ، وكذلك عدم ترابط العبارات في كثير من الأحيان ، حتى اضطر هو ، مثله مثل محققها السابق ، إلى زيادة كثير من أدوات العطف لترتبط الجمل وتتضح معانيها[٢٣] .

ومن الملاحظ أيضاً أن ابن جبير يضمن كلامه كثيراً من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وينثر فيه بعض أبيات من الشعر في مناسبات ملائمة . وقارىء الرحلة يقع فيها أحياناً على كثير من الإستعارات والتعبيرات الأدبية التي يصطنعها اصطناعاً ، مثل قوله في وصف أحد خطباء الحرم الشريف في مكة « . . وفي أثناء ذلك (حديثه) ترشقه سهام من المسائل فيتلقاها بمجن من الجواب السريع البليغ ، فتحار له الألباب »[٢٤] ، وفي عودة إحدى خواتين الحاج العراقي إلى مكة وفي أسباب ذلك « . . . وأجيلت في سبب انصراف هذه الملكة المترفة قداح الظنون ، وسلت الخواطر على استخراج سرها المكنون »[٢٥] . ويقول في سفرهم من عكا وقد سكن البحر « فعاد كأنه صرح ممرد من قوارير ، ولم يبق للجهات الأربع نفس يتنسم ، فبقينا لاعبين على صفحة ماء ، تخاله العين سبيكة لجين ، كأنا نجول بين سماءين »[٢٦] .

ومهما يكن فإن هذه الرحلة تحوي بعض المعلومات التي لا يستغني عنها مؤرخ ، أو جغرافي أو أديب يريد أن يدرس هذه الفترة المهمة من حياة الشرق الإسلامي ، وقد رفع بها صاحبها هذا الضرب من الصياغة الأدبية إلى درجة عالية مما حدا بالكثيرين إلى عدها ذروة من ذرى ما بلغه نمط الرحلة في الأدب العربي . وقد أفاد منه فائدة كبرى الجغرافيون والمؤرخون والرحالة المتأخرون عليه ممن أعجبوا بعبارته .

الهوامش :

(١) حسين نصار ، رحلة ابن جبير ـ المقدمة : د ـ هـ .
(٢) + (٣) الرحلة (طبعة مكتبة مصر سنة ١٩٥٥) : ٤٨
(٤) الرحلة : ١٤
(٥) م.ن: ١٤٠ ـ ١٤١
(٦) م.ن : ١٤٧
(٧) الرحلة : ١١٤
(٨) م.ن : ٢٢٥ ـ ٢٢٦ . انظر وصفه لدمشق وحماة وحلب وبغداد والإسكندرية والقاهرة .
(٩) م.ن : ٤٤ .
(١٠) م.ن : ٤٦
(١١) م.ن : ٤٥
(١٢) م.ن : ٥٠
(١٣) الرحلة : ٢٠٤ ـ ٢٠٥
(١٤) م.ن : ٣٥
(١٥) كان أمير مكة مكثر بن عيسى بن فليته حكم على فترتين من (٥٧١ ـ ٥٧٢) ومن (٥٨٤ ـ ٥٩٣) يفرض مكوساً كثيرة على الحجاج لقاء السماح لهم بالحج . ولما رفع ذلك عنهم بضمان السلطان صلاح الدين بتعويض الأمير عن ذلك بمال وطعام ، كان الأمير يرهن حسابه للحجاج في مقابل وصول هذا العوض ، كأنه وارث حرم الله بيده . ثم أن هذا الأمير كان يرتشي في سبيل تعيين حجاب البيت الحرام ـ انظر الرحلة صفحة : ٥٢ ، ١٤٢ .
(١٦) الرحلة : ٢٩٢
(١٧) + (١٨) الرحلة : ٥٢ . غرر بمعنى هلاك .

(١٩) م.ن : ٦٥
(٢٠) م.ن : ٢٦٣
(٢١) م.ن : ٥٣ ـ ٥٤
(٢٢) كراتشكوفسكي ، المرجع السابق : ٣٠١
(٢٣) مقدمة الرحلة : هـ
(٢٤) الرحلة : ١٦٥
(٢٥) م.ن : ١٦٧
(٢٦) م.ن : ٣٠٣

٢ ـ رحلة ابن بطوطة

قام ابن بطوطة بثلاث رحلات، زار في الأولى بلاد المشرق الإسلامي بما فيها الهند والصين ، وزار في الثانية بلاد الأندلس ، وفي الثالثة بلاد السودان الغربي . وكان قد غادر طنجة مسقط رأسه في يوم الخميس الثاني من رجب عام ٧٢٥ هـ معتمداً حج بيت الله الحرام ، وهو لا يتجاوز الثانية والعشرين من عمره ، فمر بالجزائر وتونس وليبيا ووصل مصر حيث تجول في مدنها ، وذهب إلى الشام ، وبعد أن طاف بلدانها ذهب إلى الحجاز حيث أدى فريضة الحج ، وسافر منها إلى العراق وطوف فيه وألمّ ببعض المدن في غربي إيران ثم أدى فريضة الحج مرة ثانية . ورحل من مكة إلى اليمن وإلى شرق أفريقيا وعاد إلى ظفار وعمان والبحرين ثم إلى مكة ليحج للمرة الثالثة ويعود إلى مصر ثم الشام وإلى جزيرة القرم والقوقاز والبلغار وإلى القسطنطينية ، ومنها رحل إلى خوارزم وبخارى وأفغانستان ثم دخل الهند سنة ٧٣٤ ومنها ذهب إلى الصين عن طريق الملايو وعاد عن طريق سومطرة ونزل في ظفار واتجه إلى بلاد العجم فالعراق فالشام فمصر فالحجاز ليحج للمرة الرابعة ، وليعود بعدها إلى مراكش عن طريق مصر فليبيا فتونس فالجزائر ، ووصل مدينة فاس في يوم الجمعة أواخر شعبان من عام ٧٥٠ هـ ليحظى برعاية السلطان أبي عنان المريني ومن فاس يزور مسقط رأسه طنجه ثم يبدأ رحلته الثانية ، وهي رحلة قصيرة زار خلالها بلاد الأندلس ثم عاد إلى مراكش ليصحب أبا عنان إلى فاس. ويودعه منها ليقوم برحلته الثالثة في

أواخر عام ٧٥٢ ، ويبقى في مدينة سجلماسة بضعة أشهر ، ليبدأ الرحلة في غرة المحرم سنة ٧٥٣ إلى بلاد السودان الغربي ويتوغل في مجاهل أفريقيا الوسطى ويعود بعدها في عام ٧٥٤ ليستظل رعاية السلطان في بلاطه بفاس حيث يمضي بقية حياته حتى عام ٧٧٦ هـ .

هذا هو الهيكل العام لهذه الرحلة الطويلة التي استغرقت ثمانية وعشرين عاماً من حياة صاحبها . ولسنا بصدد الإسهاب في ذكر أحداثها وتفصيلاتها ، وإنما نود أن نسجل بعض خصائصها وما اتصف به صاحبها ، وبعض ملاحظات حولها يمكن أن تعين في تحديد مكانها في مكتبة أدب الرحلة عند العرب .

وأول ما يلفت النظر في هذه الرحلة هو أن صاحبها ما كادت تتفتح حياته على العقد الثالث من عمره حتى خلف والديه في طنجة وراح يطوي البلاد والأقطار في عزيمة شابة لم توهنها مشقات الزمان ولا أهوال الأخطار ، فقضى ربيع حياته وشطراً من خريفه جوالاً رحالاً ، مغترباً عن أهله ووطنه بمحض إرادته واختياره . وإن مثل هذه الروح لنادرة في بني البشر على مر العصور ، فليس من اليسير أن تلد كل العصور بضعة آحاد من الأفراد يحترفون الرحلة أعمارهم كما احترفها ابن بطوطة . ولذا يمكن أن يعد هذا الرحالة طرازاً فريداً لا يماثله كثيرون في هذه الملكة الأصيلة في نفسه ، ملكة الإرتحال ، وحب الطواف والاغتراب . مما يسم رحلة ابن بطوطة بسمة تميزها عن باقي رحلات الرحالة العرب .

ولافتة أخرى ، هي أن هذا الرحالة الكبير ما كاد يستقر به بلاط فاس حتى راح يملي رحلته أو رحلاته على أحد كتاب الديوان (محمد بن محمد بن جزي الكلبي) بأمر أبي عنان السلطان . وهذه الحال تستحق وقفة نحاول فيها أن نستوضح ظروف رحالتنا وشخصيته ، إذ يجب أن لا نمر على هذا

الأمر مروراً سريعاً . فأول ما يخطر على البال في هذا المجال السؤال عن السبب الذي من أجله أملى ابن بطوطة رحلته بطلب من السلطان على محرر من المنقطعين إلى بابه أمره أن يضم أطراف ما يمليه الشيخ « مشتملاً في تصنيف يكون على فوائده مشتملاً ، ولنيل مقاصده مكملاً ، متوخياً تنقيح الكلام وتهذيبه معتمداً إيضاحه وتقريبه ليقع الاستمتاع بتلك الطرق ويعظم الانتفاع بدرها عند تجريده من الصدف »[1] . أما أن يكون الرحالة لم يدون ولو مذكرات بسيطة في رحلته ، إذ لم يخطر بباله أو لم يرد ذلك ، فهو أمر معقول ومقبول ، ولكن لم لم يطلب إليه السلطان أن يكتب رحلته بنفسه وقد أوى إلى ظل ظليل من رعايته وعطفه ، ولم يرضى الرحالة أن يملي رحلته إملاء على محرر يبيح له التصرف فيما يملي عليه (بنقل معاني كلامه بألفاظ موفية للمقاصد التي قصدها ، موضحة للمناحي التي اعتمدها) ، حيث يقول المحرر « وربما أوردت لفظه على وضعه فلم أخل بأصله ولا فرعه . . . وشرحت ما أمكنني شرحه من الأسماء العجمية لأنها تلتبس بعجمتها على الناس ويخطىء في فك معماها معهود القياس »[2] .

إن هذا النص الذي يصدر به المحرر تقديمه للرحلة لذو دلالة واضحة على أن الرحالة لم يكن يستطيع بكلامه أن يوفي معانيه للمقاصد التي قصدها ، ولا أن يوضح المناحي التي اعتمدها ، ومن هنا كانت حرية ابن جزي في التصرف والشرح ولو (دون إخلال بأصل أو بفرع) وقد يقال أن مذكرات رحلته في الشرق قد ضاعت منه ، ولكن أين مذكرات رحلتيه القصيرتين إلى الأندلس وإلى السودان الغربي ، وقد كانتا بعد تعرفه على أبي عنان ، وربما كان قد أحس بضرورة تدوين الرحلة وأهمية ذلك ، وهاتان الرحلتان دونتا في عجالة قصيرة مع الرحلة الأم وبنفس طريقة تدوينها . إنه لأمر غير عادي ، وإنها أسئلة ستبقى حائرة ما لم نقطع بالعقل بأن ابن بطوطة كان أعجميا لا يتقن الكتابة بالعربية أو على الأقل ليست

لديه ملكة الكتابة الأدبية . وليس من الضروري أن يتناقض ذلك مع ما هو معروف عن ابن بطوطة من أن أسرته عنيت بالعلوم الشرعية ، ومن أنه درس الفقه والأدب ، أو أنه تولى قضاء الحاج المغربي ثم تولى هذا المنصب في بعض البلاد التي زارها كالهند وجزر مالديف ، فتوليه هذا المنصب ليس بحجة على أنه كان ذا علم واسع أو مقدرة كبيرة في علوم الشرع ، فانتظار الحاج المغربي وصول ابن بطوطة إلى تونس وهو شاب حدث ليتولى القضاء فيه إن صح ذلك ، يظهر أن المنصب لم يكن ذا بال ، ثم قد لا يكون غريباً على مسلم قادم من الديار المقدسة أن يتولى ، بتوفر بعض الخصائص فيه ، منصب القضاء في دلهي ، وطريقة توليه هذا المنصب الذي اختاره من بين مناصب الوزارة والكتابة التي عرضت عليه وعلى بعض الآخرين مقابل هدايا قدموها للسلطان ذات دلالة لا تخفى على الفاحص . ونحن أميل إلى الترجيح بأن ابن بطوطة لم يكن قد كون التكوين الديني الكامل في علوم الدين والشرع لصغر سنه عندما أزمع القيام برحلته ، ولما يذكره من زواجه المتعدد في معظم البلدان التي كان يحل فيها ، وكأنه لم يكن أسهل عليه من الزواج إلا الطلاق . ويقوي هذا الزعم عدم مقدرتنا على استشفاف أي أثر لأي حكم شرعي أو نص فقهي يرد على لسانه في مناسبة من المناسبات وهو القاضي المتنقل . هذا إذا غضضنا النظر عن ماهية الأمور وفحوى الموضوعات والحكايا والخرافات التي لقيت منه اهتماماً أكثر من أي شيء آخر في رحلة حياة طويلة. ونحن لا نطالبه بتذكر كل شيء بعد هذه السنوات العديدة ، ولكن نوع ذكرياته التي سجلها ينم عن منهجه العقلي وعن طريقة تفكيره . وهذا الذي ذكره ، وأقل منه أيضا يدل ، وأيم الحق ، على حافظة قوية كان يتمتع بها الرجل . ومع هذا فليس من الضروري أن يكون عالماً أو فقيهاً ، حتى ولو صح اجتماعه بكل من ذكر أنه لقيهم من علماء ورجال دين وقضاء . فهو ، كما يستشف من رحلته ، قد لا يخرج عن كونه

رجلاً مغامراً شهماً كريماً ، يمثل شخصية المسامر والمنادم اللبق الذي اتصل بالحياة في بلاط السلطان برغم ما يسمه من سطحية ولا واقعية في أمور الحياة . ومثل هذه الشخصية تليق للقيام بالدور الذي قام به ابن بطوطة وبمستواه . أما أنه لو كان من نوعية العالم حقاً ، فعلى الأغلب لن تتسنى له فرصة هذه الرحلة في الأرض بالطول والعرض ، ثم هي إن سنحت فستثمر حتماً ثمراً غير هذا الثمر كيفاً وكماً ، وما أجدره عندها بتولي القضاء في سلطنة راعيه أبي عنان وقد استقر في بلاطه أكثر من خمسة عشر عاماً بعد تسجيل رحلته إلى أن لبى نداء ربه . ونحن إذا غضضنا النظر عما يشيره بعض المستشرقين من شكوك حول هذه الرحلة أو حول بعض موادها ، فإننا لا نستطيع أن نغضه عن شكوك ومحاذير أثارها وسجلها إثنان من معاصريه ، وأولهما محرر رحلته ابن جزي ، الذي لم يستطع أن يخفي حذره إذ قال « وأوردت جميع ما أورد من الحكايات والأخبار ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار على أنه سلك في إسناد صحاحها أقوم المسالك وخرج عهدة سائرها بما يشعر من الألفاظ بذلك وقيد المشكل من أسماء المواضع والرجال بالشكل والنقط ليكون أنفع في التصحيح والضبط »[٣] . وثانيهما ابن خلدون ، الذي ذكره والتقى به شخصياً ، وفيه يقول « ورد بالمغرب لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة ، كان رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق . . . ثم انقلب إلى المغرب واتصل بالسلطان أبي عنان وكان يحدث عن شأن رحلته وما رأى من العجائب بممالك الأرض ، وأكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند ويأتي من أحواله بما يستغربه السامعون . . فتناجى الناس بتكذيبه . ولقيت أيامئذ وزير السلطان (فارس بن وردار) البعيد الصعيد ففاوضته في هذا الشأن وأريته إنكار أخبار ذلك الرجل لما استفاض في الناس من تكذيبه . . »[٤] . ومهما يكن من أمر المستشرقين إزاء رحلة ابن بطوطة ،

وتأرجح موقفهم بين الثقة التامة في صدقها كما يرى كوزغارتن Kosegarten ولي Lee) أو النقد المتطرف لها من قبل يول Yule فإنني سأجري مع محاولة كراتشكوفسكي تأكيد صحة الرحلة ، إذ يقول: « وأخيراً ، وفي القرن العشرين نلحظ بداية عهد من الإعتراف بقيمته من جديد ، أخذ يكتسب الأنصار يوماً بعد يوم . . خاصة وأن رواياته عن مواضع مجاورة كجزر مالديف مثلاً قد أكد الرحالة المتأخرون صحتها برمتها»[٥] على أن ذلك يجب أنْ لا يمنعنا من النظر إلى هذه الرحلة بروح العلم والموضوعية لتوضع وصاحبها في مكانهما في مكتبة الرحلات العربية ، وليكون تقويمها بميزان أدق وأسلم.

إن حكايات الرحلة وخرافاتها وموضوعاتها التي شدت انتباه صاحبها تجعله أكثر قرباً إلى المعتقدات الشعبية ، بل ومن كبار معتقديها ، إذ احتلت المسائل المتعلقة بالخرافات وحكايا الكرامات والغرائب والدراويش المكانة الأولى بالنسبة له . وقد لا نجيز لأنفسنا أن نؤاخذه إذ لم يلق بالاً لجوانب الحياة التي تهم عصرنا ولكن هل كان بدوره يعكس بدقة وإخلاص العصر والوسط اللذين عاش فيهما وذلك على ضوء الظروف الحضارية السائدة إذ ذاك ؟ لتكن حضارة العرب والإسلام ، كما يقول الدكتور نقولا زيادة « قد بدأت بالوقوف عن التقدم نتيجة لعوامل كثيرة ، لعل أهمها التجميد الرسمي الذي فرضته الدولة على العقل ونشاطه ، فحصرت الجهد الفكري فيما من شأنه أن يقوي كيانها ـ مؤيداً بالدين ـ ويظهر زيغ خصومها . وهكذا فالحضارة العربية تبدو في صفحات ابن بطوطة قليلة الحركة والنشاط والتوثب ، وتطلع علينا وكأنها لا دينامية لها »[٦] ، ولكن هل تشابهت المعتقدات وتجانست الموروثات في البيئات الإسلامية المتعددة التنوع والتي خبرها ابن بطوطة وعاش فيها سنوات طوالاً مع المعتقدات والموروثات في البيئة المغربية التي ينقل إليها وقد حرم من أن يتمثلها تمثلاً صادقاً لانقطاعه

الطويل عنها ، وبمقدار هذا التجانس القائم بين خرافات الرحلة وحكاياتها من مختلف البلدان ؟؟ إننا ، وقد رأينا محاولات ابن جبير في التحقيق والتدقيق وهو سابق عليه بحوالي قرنين من الزمان ، إذا حاسبنا ابن بطوطة بموازين زميله وتقويمه للأمور ، سنحكم قطعاً بأن هذا التجانس لم يكن إلا باختيار ابن بطوطة نفسه كل ما أورده ورواه لمصادفته هوى خاصاً لديه يتفق ومقوماته الشخصية ، وربما كنا أكثر تدقيقاً إذا حملنا محرر الرحلة ـ ابن جزي ـ مسؤولية ما نقله عن بعض الرحالة السابقين.

وعلى أية حال ، فإن رحلة ابن بطوطة تحتوي على كثير من الموضوعات التي تهم الجغرافي والمؤرخ والعالم الإجتماعي والأديب ، ونحن إنما نقصد بالرحلة هنا الكتاب بما قصه الرحالة وبما أضافه المحرر. فقد نقل إلينا ابن بطوطة في رحلاته الطويلة هذه كثيراً عن أحوال بعض المجتمعات التي شاهدها وعاش فيها ، من عادات الناس وتقاليدهم ، وملابسهم وأطعمتهم وأشربتهم ، وبعض شعائرهم الدينية . فهو يذكر مثلاً عادات أهل مكة في صلواتهم ومواضع أئمتهم ، وفي الخطبة وصلاة الجمعة وعاداتهم في استهلال الشهور وشهر رجب بخاصة ، ويتحدث عن عمرة رجب وعادتهم في ليلة النصف من شعبان وفي شهري رمضان وشوال ويذكر شعائر الحج وأعماله ، وفي ذكر عادتهم في ليلة النصف من شعبان يقول « وهذه الليلة من الليالي المعظمة عند أهل مكة يبادرون فيها إلى أعمال البر من الطواف والصلاة جماعات وأفراداً . والاعتمار ويجتمعون في المسجد الحرام جماعات لكل جماعة إمام يوقدون السرج المصابيح والمشاعل ويقابل ذلك ضوء القمر فتتلألأ الأرض والسماء نوراً ويصلون مائة ركعة يقرأون في كل ركعة بأم القرآن وسورة الإخلاص يكررونها عشراً وبعض الناس يصلون في الحجر منفردين وبعضهم يطوفون بالبيت الشريف وبعضهم قد خرجوا للإعتمار »[٧] .

ويتحدث لنا عن البريد في الهند وإنه صنفان ، بريد الخيل وبريد الرجالة ، وعن خدماته التي يقدمها للسلطان بحمل الفواكه المستطرفة بالهند وخراسان في أطباق وتقديمها له وكذلك حمل الماء المقدس له عن مسافات بعيدة ، ثم بإخباره بكل أحوال من يصل إلى بلاده ، حتى إذا ما قدم عليه أكرم بقدر ما يظهر من أفعاله وتصرفاته وهمته ، وإن من مهمات البريد حمل الكبار من ذوي الرتب إذ يجعلون الرجل على سرير ويرفعونه فوق رؤوسهم ويسيرون به شداً[٨] . وعن عادة ملك الهند السلطان أبي المجاهد محمد شاه في إكرام الغرباء ومحبتهم وتخصيصهم بالولايات والمراتب الرفيعة يقول « ومعظم خواصه وحجابه ووزرائه وقضاته وأصهاره غرباء ونفذ أمره بأن يسمى الغرباء في بلده الأعزة فصار لهم ذلك إسماً وعلماً ولا بد لكل قادم على ذلك الملك من هدية يهديها إليه ويقدمها وسيلة بين يديه فيكافئه السلطان عليها بأضعاف مضاعفة »[٩] ، مما جعل التجار يقبلون على تجهيز القادمين وإدانتهم كل ما يحتاجونه هدية للسلطان فتنفق تجارتهم وتكثر أرباحهم بعد عطايا السلطان لهؤلاء القادمين . ولا يفوته أن يسجل بعض عادات بلاط السلطان في الهند ، في ترتيب داره وحجابه وجلوسه وفي دخول الغرباء وأصحاب الهدايا عليه ، وفي دخول هدايا عماله إليه وفي خروجه للعيدين وجلوسه يوم العيد وغير ذلك من عادات في توديعه أو استقباله عند السفر وفي ترتيب الطعام للعام وللخاص في داره . وعن تعيينه قاضياً لدار الملك في دلهي يقول بعد أن يفصل في دخوله مع بعض الغرباء إلى حضرة السلطان ومقابلته لهم « ثم بعد ذلك أمر لنا بالمرتبات فعين لي إثني عشر ألف دينار في السنة وزادني قريتين على الثلاث التي أمر لي بها من قبل . . وفي بعض الأيام بعث لنا خداوند زاده وغياث الدين وقطب الملك صاحب السند فقالا (كذا) لنا أن خوند عالم يقول لكم من كان منكم يصلح للوزارة أو الكتابة أو الإمارة أو لقضاة التدريس أو المشيخة أعطيته

ذلك »[١٠] . وبطلب ابن بطوطة عينه السلطان في منصب قاضي دار الملك . ويفيض كثيراً في ذكر عطايا السلطان وهداياه . وحديثه عن بلاد الهند يطول فيتناول فيه عادات أهل البلاد في الجنائز وحرق الموتى وإحراق زوجاتهم أنفسهن بعدهم . ويتحدث عن نباتات الهند وحبوبها وفواكهها والغلاء والمجاعة التي وقعت فيها في سنة من السنوات ، ويبين في ذلك من مفارقات الحكم الشيء العظيم إذ يقول « . . ولما اشتد الحال أمر السلطان أن يعطى لجميع أهل دلهي نفقة ستة أشهر فكانت القضاة والكتاب والأمراء يطوفون بالأزقة والحارات ويكتبون الناس ويعطون لكل نفقة ستة أشهر »[١١] . وهذا من غرائب الأحوال أن يضطر الناس لأكل جلود الخيل واللحوم البشرية وصاحب البلد يستطيع أن يوزع عليهم نفقة ستة أشهر سلفاً . ومهما يكن من أمر هذا الخبر وغيره ، فإنه يدل على نوع المجتمع الذي كان يقوم في تلك الأيام . ومن الصين ينقل إلينا صوراً عن كثير من جوانب الحياة فيها ، فالكفار من أهلها يحرقون موتاهم كما تفعل الهنود ، وهم يأكلون لحم الخنزير والكلاب وهم أهل رفاهية وسعة عيش ، إلا أنهم لا يحتفلون في مطعم ولا في ملبس . والحرير عندهم كثير لكثرة الدود ورخص تربيته ، والثوب منه أرخص بكثير من ثوب القطن . « وعادتهم أن يسبك التاجر ما يكون عنده من الذهب والفضة قطعاً تكون القطعة منها من قنطار فما فوقه وما دونه ويجعل ذلك على باب داره ومن كان له خمس قطع منها جعل في إصبعه خاتماً ومن كانت له عشر جعل خاتمين . . وأهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم وجميع ما يتحصل ببلادهم يسكبونه قطعاً كما ذكرناه وإنما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد كل قطعة منها بقدر الكف مطبوعة بطابع السلطان . . وإذا تمزقت تلك الكواغد في يد إنسان حملها إلى دار كدار السكة عندنا فأخذ عوضها جدداً ودفع تلك ، ولا يعطي على ذلك أجرة ولا سواها لأن الذين يتولون عملها لهم الأرزاق الجارية من

قبل السلطان »[١٢] ويتكلم عما خص به أهل الصين من أحكام الصناعات وخاصة التصوير الذي لا يجاريهم أحد في أحكامه « ولقد دخلت إلى مدينة السلطان فمررت على سوق النقاشين ووصلت إلى قصره مع أصحابي ونحن على زي العراقيين فلما عدت من القصر عشيا مررت بالسوق المذكور فرأيت صورتي وصور أصحابي منقوشة في كاغد قد ألصقوه بالحائط فجعل الواحد منا ينظر إلى صورة صاحبه لا تخطىء شيئاً من شبهه . وذكر لي أن السلطان أمرهم بذلك وأنهم أتوا إلى قصره ونحن به فجعلوا ينظرون إلينا ويصورون صورنا ونحن لم نشعر بذلك وتلك عادة لهم في تصوير كل من يمر بهم وتنتهي حالهم في ذلك أن الغريب إذا فعل ما يوجب فراره عنهم بعثت صورته إلى البلاد وبحث عنه فحيثما وجد شبه تلك الصورة أخذ »[١٣]. وهو من هذه الناحية يصور الحياة في الصين على درجة من التنـ يـم فلا يسافر جنك من جنوكهم إلا ويكتب صاحب البحر من عليه من الرماة والخدم والبحرية ليعرف من يعود منهم ومن لا يعود ، وصاحب الجنك مسؤول عن ذلك فيبرهن على موت المفقود أو فراره ، وهم يتشددون في ضبط السلع والبضائع المجلوبة وتسجيلها لمحاسبة المخالفين ومجازاتهم . وللصينيين عادة حميدة في منع التجار عن الفساد وفي حفظ أموال الغرباء وتجاراتهم في المدن وفي الطرق ولهم في ذلك طرق مشددة . ولا يفوت ابن بطوطة أن يتحدث عن المسلمين في الصين ، فهم يعيشون في مدن خاصة بهم ، « ولهم فيها المساجد لإقامة الجمعات وسواهـ وهم معظمون محترمون » . وفي سومطرة يرينا مظاهر احتفالهم بالأعراس كما رآها أثناء أعراس ابن سلطانها الملك الظاهر . وخبر رحلته إلى الأندلس لا يطول ، ولا يذكر فيه شيئاً ذا بال . أما رحلته الأخيرة إلى السودان الغربي فقد لقيت منه اهتماماً أكبر وأوفى ، ونقل لنا خلالها كثيراً من مشاهداته عن الحياة الإجتماعية في البلدان التي مر بها ، ومن ذلك ما يقوله في مسوفة الساكنين

بايوالاتن ، وهي أول عمالة السودان « وشأن هؤلاء القوم عجيب وأمرهم غريب فأما رجالهم فلا غيرة لديهم ولا ينتسب أحدهم إلى أبيه بل ينسب لخاله ولا يرث الرجل إلا أبناء أخته دون بنيه وذلك شيء ما رأيته في الدنيا إلا عند كفار بلاد المليبار من الهنود وأما هؤلاء فهم مسلمون ومحافظون على الصلوات وتعلم الفقه وحفظ القرآن وأما نساؤهم فلا يحتشمن من الرجال ولا يحتجبن مع مواظبتهن على الصلوات ومن أراد التزوج منهم تزوج لكنهن لا يسافرن مع الزوج ولو أرادت إحداهن ذلك لمنعها أهلها . والنساء هنالك يكون لهن الأصدقاء والأصحاب من الرجال الأجانب وكذلك للرجال صواحب من النساء الأجنبيات ويدخل أحدهم داره فيجد امرأته ومعها صاحبها فلا ينكر ذلك »[١٤]. وهو يحفظ لنا في هذه الرحلة من عادات أهل السودان وتذللهم لملكهم وتتريبهم أنفسهم أمامه ـ أي أن يحثو أحدهم التراب على رأسه وظهره كما يفعل المغتسل بالماء ـ عندما يكلمه السلطان والكثير من الغرائب والمضحكات . وثمة أمور دونها في هذه الرحلة مما استحسنه من أفعال السودان كقلة الظلم وشمول الأمن في بلادهم وعدم تعرضهم لمال من يموت في بلادهم من البيضان ، ومما استقبحه منها كظهور الخدم والجواري والبنات الصغار عرايا أمام الناس وفي دار السلطان حتى في شهر رمضان . ومما حدث به خبر بعض أهل السودان الكفرة من أكلة لحوم البشر الذين لا يأكلون البيضان لأن أكل الأبيض في نظرهم مضر لأنه لم ينضج في بطن أمه إذ إن الأسود هو النضج بزعمهم .

ومن الملاحظ أن ابن بطوطة لم يهتم بالأقطار إلا قليلاً ، فهو إنما يصف المدن باعتبار من يقطنها من الناس فقد كان الناس موضع اهتمامه ، ولذلك تصدى ابن جزي كما نعتقد ـ بما اعتبره خدمة منه ، لوصف بعض المدن باعتماده على كتابات سابقة كرحلة ابن جبير مثلاً في وصف بغداد وحلب

ودمشق ونصيبين ، متناسياً أن أهمية الوصف هنا تتأتى عن كونها تصور الموصوف أيام الرحالة وكما شاهده وعاينه بنفسه ، وإلا فما فائدة أن يصف لنا بغداد مثلاً كما رآها ابن جبير قبله بنحو مائتي عام ، ونحن نريد أن نعرفها كما رآها هو فنقف على ما آلت إليه خلال هذه المدة . ومثل هذا ما نقله عن إبن جبير أيضاً في وصف الحجر الأسود وأثر تقبيله عند الحجاج . ويبدو على الإجمال أن لعامل الزمن إلى جانب شخصية ابن بطوطة أثراً كبيراً في هذا الإتجاه . ومن هنا فنحن لا نستغرب اهتمامه بذكر الشخصيات العلمية والدينية التي التقى بها في كل بلد حلّ فيه . فهو دائماً موضع الاحتفاء والتكريم . ويبدو أنه كان يستشعر لذة خاصة في ذكر الأشخاص الذين عرفهم وفي التحدث عنهم . وهم بهذا يشغلونه كثيراً حتى لكأن ذكرهم هواية وتبرك ، فيروي من كراماتهم وأحاديثهم فيشوق القارىء ويطلعه على نواح من حياة المجتمع في زمنه . ويتصل بذكر هؤلاء الناس الفيض العميم من الحكايا والكرامات التي يذكرها عنهم ولهم أو لغيرهم . وأكثر من هذا الخرافات التي سيطرت على معتقد الرحالة ، فأدنته إلى معتقدات العامة بل وأصبح من منابعها وأصولها في هذه الرحلة ، فهو يفيض في ذكرها دون أن يبدي أي لون من ألوان الحذر أو التحفظ مما أثار في نفوس معاصريه عوامل الشك والريبة في أحاديثه . ومن المرات النادرة التي نرى فيها ابن بطوطة يحاول التحقق أو امتحان معتقد العامة ما يرويه عن إحدى صوامع مسجد البصرة التي تتحرك بزعمهم عند ذكر علي بن أبي طالب حيث يقول « صعدت إليها من أعلى سطح الجامع ومعي بعض أهل البصرة فوجدت في ركن من أركانها مقبض خشب مسمراً فيها كأنه مقبض مملسة البناء فجعل الرجل الذي كان معي يده في ذلك المقبض وقال بحق رأس أمير المؤمنين عليّ «رضي الله عنه» تحركي وهز المقبض فتحركت الصومعة فجعلت أنا يدي في المقبض وقلت له وأنا أقول بحق رأس أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ تحركي

وهـزت المقبض فتحـركت الصومعـة فعجبـوا من ذلك»[١٥] . وإذا كنـا نستغرب إغراقه في ذكر ذلك الحشد الهائل من أسماء الأشخاص الذين لقيهم وتعرف بهم ، فليس لنا أن نستغرب ذكره للسلاطين والأمراء الذين كان محل حفاوتهم وإعزازهم ، يقربونه حيثما حل ، ويزودونه بكتب التوصية حيثما رحل ، فلا نراه يودع حاكماً إلا ليلقى آخر منهم وكأنه مبعوث رسمـي كما تحكي الرحلة ، وهو في غالب الأحيان مادح لهم ، قاصد عطاءهم .

حقاً ، قد يبدو أثر الإسلام في كثير من أجزاء الرحلة ، وحتى فإن سرد ابن بطوطة لكثير من حكاياتـه والكرامـات التـي أتـى عليهـا ليبـين ذلك بالإضافة إلى بعض تعبيراته ودعواته الدينية من مثل « جزاه الله أفضل الجزاء عن الإسلام والمسلمين » . « واستخرت الله عز وجل » ، وبالإضافـة إلى اهتمامه برجال الدين ومدح أهل بعض البـلاد بأنهـم أهـل صلاح وديانـة محافظون على الصلاة وحفظ القـرآن ، واستقباحـه تعـري النسـاء في بلاد السودان ، ومحاولاته عبثاً وهو قاض في جزائر (ذيبة المهل) ، أن يفـرض التستر على نسائها . ولكن كل هذه المظاهر تبـدو سطحية ساذجـة منـه ، ويبدو هو شخصاً عادياً لا يتمتع بأي مواهب خاصة ولا ينعكس في رواياته أي أثر لفكر متعمق ، أو نظر متأمل ، أو ملاحظة دقيقة ، فمشاهداته يحكيها بكل بساطة وسذاجة . . ومن كلامه على السلاطين والحكام المسلمين الذين اتصل بهم يمكننا أن نتصور ملامح بسيطـة للمجتمـع السياسي لديهـم ، ويبدو هذا المجتمع في غاية البساطة والاستغلال من قبل حكامه ، وابـن بطوطة القاضي الفقيه الذي طاف معظم أنحاء العالم الإسلامي وقتهـا لا يكاد يحرك لسانه بكلمة واحدة توجه أو تنقد ، على عكس ما رأينا من مواقف حادة من ابن جبير في عيذاب وفي مكة نفسها إزاء تصرف أميرها ، مكثر بن عيسى ، مع الحجاج ومع حاجب الكعبة فهـل يكون لتراخـي الزمـن ،

بالنسبة لابن بطوطة ، بين رحلته وبين تسجيلها ، ثم لتكريم هؤلاء السلاطين مثواه أثر في موقعه وضربه صفحاً عن ذلك كله ؟

أسلوب كتابة الرحلة :

من المعروف أن السلطان أبا عنان ، سلطان فاس كان صاحب الفضل في ظهور كتاب وصف رحلة ابن بطوطة ، فهو الذي وفر له محررها الأدبي من كتاب ديوانه . وتدل القرائن على أن رحالتنا ، على الرغم من ولعه بالقصص ، لم يكن ذا ميل إلى الكتابة لسبب أو لآخر ، وأنه لم يملك مذكرات لرحلته عند إملائها ، فهي إما أن تكون ضاعت منه أو أنه لم يكتبها أصلاً كما هو الأغلب . ومن هنا فإن سرده حوادث هذه الرحلة لم يكن متمثلاً في ذهنه بهدف إخراجها كتاباً متكامل الجوانب ، بدليل تقطع الحكايات وعدم اتصال الأحداث فيها باستمرار وإنما كان كل همه أن يقدم مادة هذا الكتاب إلى المحرر بلا تنسيق . وقد أثر ذلك على منهج الكتاب وعلى التسلسل والتكامل فيه ، برغم الجهد الواضح الذي بذله الكاتب للربط بين هذه القصص والأخبار . ومن هنا فإن طريقة المشاركة في الإملاء والتدوين جعلت من الصعب الارتفاع بأسلوب الرحلة إلى النمط الجيد والتدوين المتكامل المترابط ، فبدا اختلاط الأسلوبين واضحاً ، وعرى التسلسل مفككة وغير مترابطة في أكثر أجزاء الكتاب فجاء مفتقراً إلى التناسب والتناسق . فلغة السرد القصصي التي يعرض فيها الرحالة أخباره وحكاياته ، لغة قصصية بسيطة أميل ما تكون إلى لغة المحادثة العادية ، أو أقرب ما تكون إلى ما يمكن أن يسمى « باللهجة الشخصية » ، وإن اكتنزت بتفاصيل غنية وكثيرة . ولا غرابة في ذلك إذ لم يكن همه عرض قدرة لغوية أو ملكة أدبية ، وإنما همه أن يقص ما لديه من حكايات ومشاهدات . وهذا أمر طبيعي مع رحالة طوف هذه السنوات في أرجاء الأرض ، وفي مثل

ظروف ابن بطوطة وأحواله . وبجانب هذا يبدو منهج ابن جزي وأسلوبه واضحين تمام الوضوح ، فمن حيث الأسلوب يبدو فيه الميل الجلي إلى السجع والإطناب ، والحشو المتكلف مما يجعله ثقيلاً واضح الصنعة إلى جانب أسلوب الرحالة ولغته ، بادي التميز والاختلاف عنه ، إذ كان همه الأكبر عرض قدراته اللغوية واطلاعه الأدبي . أما من حيث منهجه ، فقد أشار هو نفسه إلى جانب منه في تقديمه للرحلة عندما أشار إلى موقفيه المتباينين من كلام ابن بطوطة ، فهو حيناً يثبته بنصه الصريح دون تغيير أو تحريف ، وحيناً آخر يصوغه بصنيع من إنشائه الخاص [١٦] ، مما أدى إلى اختلاط الأسلوبين في تأدية المعاني . ولقد حاول دارسو الرحلة التفريق بين الأسلوبين فقالوا إن المقدمة والخاتمة وبعض مقدمات الأوصاف وخاصة فيما يتعلق بأوصاف المدن من إنشاء ابن جزي ، وما تبقى من إملاء ابن بطوطة.

ومحاولات ابن جزي في جمع ما أملاه الشيخ من قصص في وحدة متماسكة متناسقة جلية واضحة في الكتاب . ويتمثل تدخله من ناحية أخرى ، كما يبدو على طول الكتاب ، في إضافته معلومات من لدنه على ما يملى عليه ، وفي إثباته أبياتاً من الشعر له أو لغيره يستشهد بها بمناسبة أحياناً وبغير مناسبة أحياناً أخرى . وهو يشير إلى ذلك بقوله في بداية إضافاته (قال ابن جزي) وبعد أن ينهي ما يريد إضافته أو الاستشهاد به مع الإشارة إلى صاحبه يردف بكلمة (رجع) بين قوسين إيذاناً بالعودة إلى تسلسل الإملاء . وهذا متكرر كثيراً على طول الرحلة . ونراه يتدخل على هذا النمط أحياناً للتعليق على أبيات وردت في النص[١٧] . وهو في هذا إنما يحاول ، دون ريب ، إثبات اطلاعه وقدرته الأدبية وتطعيمه نص الرحلة ليكسب بهذا التزويق كلام صاحبها حيويه أكثر تقربه إلى النصوص الأدبية . وهو لا ينكر أنه نقل بعض الأوصاف عن آخرين ، فيذكر أحياناً ما أخذه عن ابن جبير في وصفه بغداد

مثلاً ولكنه لا يشير إليه فيا أخذ عنه في وصف نصيبين والحجر الأسود .
وابن جزي ، كما أشار ، كان حريصاً على « قيد المشكل من أسماء المواضع والرجال بالشكل والنقط ليكون أنفع في التصحيح والضبط » ، وهو يشرح ما أمكنه شرحه من الأسماء العجمية لأنها تلتبس بعجمتها على الناس . ولا يفوتني أن أشير هنا إلى كثرة العنوانات في الرحلة وعدم ترتيب سردها أو تنسيقها أمام الفيض الزاخر من المادة التي يقدمها الرحالة وأمام تنوع هذه المادة وعدم ترابطها ، فجاءت كثرة هذه العنوانات متمشية مع إملاء صاحبها ومحاولة لتصنيف هذا الفيض وإيقافه عند حدود ضيقة تنتهي مع كل خبر أو حكاية ، فهي تجزئة من نحو ومحاولة للتنسيق والضبط من نحو آخر . هذا ، وإذا كان لا بد من كلمة أخيرة على أسلوب الرحلة ومنهجها فلا شك أن ابن جزي يجازى على جزء من عيوبها كما يجزى على فضل تسجيلها وحفظها للأجيال التالية .

تقويم الرحلة :

أشرت فيا سبق إلى ما أثار ابن بطوطة من شكوك معاصريه في أخبار رحلته بسبب ما أضفى عليها من مبالغات وعجائب ، كما أشرت إلى موقف المستشرقين الذين اطلعوا على هذه الرحلة وما آل إليه هذا الموقف في مطالع القرن العشرين من تقدير لها بعد محاولات تحقيق بعض أخبارها ومعلوماتها التي كانت موضع شك فيا سبق . ومع ذلك فإن بعض الملاحظات على هذه الرحلة تعرض نفسها مع كل محاولة لتقويمها . فكل ما أشار إليه ناقدو الرحلة من خلط صاحبها الشديد المتعلق بآسية الصغرى ومبالغته في سرد أخباره ، وإهماله التفصيل في وصف المدن والأمصار ، وذلك مما لا تغني عنه اقتباسات ابن جزي عن سابقيه ، ومن عدم اتباع ترتيب معين في سرد الأحداث والأخبار والحكايات سيبقى عيوباً ونقائص تعتورها حتى وإن

فسرنا ذلك بالفارق الزمني بين الرحلة وبين إملائها وعدم توفر مذكرات فيها وما يسبب ذلك من خطأ أو نسيان ، فذلك ليس بالمبرر الكافي إذا ما تذكرنا أن رحالتنا بقي يحتفظ بكثير من التفصيلات الدقيقة التي قد تكون أكثر قابلية للنسيان لولا اهتمامه الزائد بها لموافقتها هوى في نفسه كذكره مئات الأسماء التي التقى بأصحابها في الأقطار العديدة التي زارها . وإذا كنا نقنع بإمكان بقاء هذه القصص والأخبار في ذهنه ، فإن استمرار حفظه لقياسات المساجد والأماكن المتعددة التي ذكر أطوالها وقياساتها لمما يثير الدهشة والتساؤل . وإذا ضربنا صفحاً عن هذا كله فإن افتقار رحلته الشديد إلى التدقيق والنقد التحليلي ليطبعها بطابع الرحلة الخرافية إذ هي في أجزاء كثيرة منها ضرب من الحكايات والأساطير الشعبية . ولو أثبت ابن بطوطة أنه حاول استخدام التحقيق والتحليل والنقد محكاً للنظر في الأمور لصفى كثيراً من أخباره وغربلها ، وارتفع بقيمتها وبالتالي أكسب رحلته أهمية أكبر ، على غرار ما حاول ابن جبير في بعض الأحيان . فكلاهما سمع في مكة ما هو شائع بين الناس عبر الأجيال من فكرة زيادة ماء زمزم ، فأورد هو الخبر في سذاجة وبساطة كما سمعه على علاته برغم زيارته لمكة أربع مرات كما يقول ، في حين أن إبن جبير حاول التثبت من ذلك وأثبت بالتجربة بطلان هذا المعتقد . وهناك أمور أخرى لا بد من الإشارة إليها ، منها اختصاره الشديد في وصف طريق خروجه في شمال إفريقيا ، وإذا فسرنا ذلك بنسيانه التام لبعد الزمن ، فما كان أجدره بوصفه في طريق العودة . وكذلك كان جديراً به أن يقارن بين أحوال البلاد التي تعددت زياراته لها ، كمكة ومصر مثلاً ، خاصة وهو يتعمد بقدر ما يمكنه أن لا يعود من طريق سلكها من قبل . وإذا كنا نتساهل معه في ذلك ، فإن اختصاره الشديد في وصف رحلتيه إلى الأندلس وبلاد السودان الغربي ، وهو حديث عهد بهما عند إملائه أخبارهما ، وتشابه منهجه في سرد أخبارهما مع منهجه السابق في طابعه العام

لماً يؤكد الحكم بعدم قوة ملاحظته وعدم تعمقه في النظر إلى الأشياء ، فهاتان الرحلتان مع رحلة عودته من مصر بصورة خاصة كانتا جديرتين بأن تثيرا إحساساته وتنبهانها بشكل فعال ومؤثر وعلى صورة مختلفة عما سبق ، ثم إن طنجة مسقط رأسه لم تثر فيه عندما زارها أية عاطفة تدعوه لمقارنة أحوالها يومئذ بما يذكره عنها أيام خروجه الأول منها .

وعلى أية حال ، فإن ابن بطوطة بهذه الرحلة العظيمة ، يمثل المواطن الإسلامي الذي طاف أرجاء العالم الإسلامي في القرن الثامن الهجري بدافع المغامرة والتجارة أو حب الرحلة المجرد وسيبقى دليلاً على وحدة الشعور الإسلامي أيامها في أمصار الإسلام المتعددة . وسيبقى يمثل نوعية فريدة من الرجال الرحالين على مدى الدهور، فقد قدم من خلال رحلته هذه كثيراً من المعلومات التاريخية والجغرافية عن مناطق معروفة ومناطق أخرى في الشرق الأقصى وفي بعض مجاهل إفريقيا لم تكن معرفتها واسعة الإنتشار ، إن لم تكن معدومة أحياناً . ولا يقلل من أهمية هذه المعلومات ما تزخر به الرحلة من أخبار وحكايات غريبة تطبعها بطابع أسطوري وتسمها بسمة الرحلة الخرافية كما أشرت من قبل. وسنظل نعتبر رحلة ابن بطوطة، مع كونها صياغة أدبية لروايته، حررها ابن جزي، وبرغم ما أفقدتها هذه المشاركة من حيوية، جهداً أثرى به العرب في جملة ما أثروا التراث الإنساني، حتى في مجال هذه الخرافات أو الحكايات الشعبية.

الهوامش :

(١) الرحلة (مطبعة الإستقامة سنة ١٩٦٧) : ٤
(٢) الرحلة : ٤
(٣) م.ن : ٤
(٤) المقدمة ج١ (طبعة سنة ١٢٧٤ هـ) : ٨٩
(٥) كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي قسم ١ : ٤٢٨ ـ ٤٣٥ . يصحح أحمد زكي تسمية هذه الجزر ، فيخطىء تسميتها جزر مالديف ، ويرى أن اسمها الصحيح ، وكما سمعه من أهلها هو (مهل ذيبة) . وهذا ينطبق على ما أطلقه عليها ابن بطوطة (ذيبة المهل) . انظر دائرة المعارف الإسلامية المترجمة ـ المجلد الأول ، صفحة ١٠٠ هامش رقم ١ .
(٦) نقولا زيادة ـ الرحالة العرب : ١٢٥
(٧) الرحلة ج١: ١٠٢
(٨) الرحلة ج٢: ٢ ـ ٣
(٩) م.ن : ٣
(١٠) م.ن : ٨٠
(١١) الرحلة ج٢: ٧٤
(١٢) م.ن : ١٦٠
(١٣) م.ن : ١٦١
(١٤) م.ن : ١٩٤
(١٥) الرحلة ج١: ١١٦
(١٦) م.ن : ٤
(١٧) م.ن : ٤٣

٣ ـ التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً

يعتبر هذا الكتاب نموذجاً جيداً لنمط الترجمة الذاتية (الأوتو ـ بيوجرافيا Auto-Biography) حيث يترجم المؤلف لسيرة حياته بقلمه. وليس ابن خلدون الأول من بين المؤلفين العرب والمسلمين الذين ترجموا لأنفسهم ونحوا هذا المنحى الفني في التأريخ الذاتي، وإنما يعتبر المجليّ بينهم في هذا المضمار، فقد سبقه ياقوت الحموي عندما ترجم لنفسه في معجمه عن الأدباء، ولسان الدين بن الخطيب، معاصر ابن خلدون وصديقه في كتابه « الإحاطة في أخبار غرناطة »، والحافظ بن حجر في كتابه « رفع الأصر عن قضاة مصر »، وهو معاصر له كذلك. وفرق ابن خلدون عن هؤلاء أنه لم يقنع مثلهم بترجمة موجزة مقتضبة عن أنفسهم، فقد أفاض في التعريف بذاته، وفي تقديم نفسه إفاضة دقيقة وشاملة، إذ غطى أخبار سيرته وأهم أحداث حياته بشيء من التفصيل إلى ما قبل رحيله عن الدنيا ببضعة أشهر. وهو حينما وضع كتابه، جعله بعنوان « التعريف بابن خلدون مؤلف هذا الكتاب » وذيل به كتابه « العبر »، ثم أدخل عليه كثيراً من التعديلات والتنقيحات والزيادات في المراحل التي عرض لتأريخها في وضعه الأول وأضاف إليه تاريخ المراحل الأخيرة من حياته، ووصل في رواية حوادثه إلى نهاية سنة ٨٠٧ هـ. فعظم بذلك حجم الكتاب مما دعاه إلى أن يستبدل

بعنوانه القديم عنواناً آخر يدل على سعة ما عرض له ، وشموله لجميع مراحل حياته ، فسماه التعريف بابن خلدون مؤلف الكتاب ورحلته غرباً وشرقاً[1] . وقد لا يبدو الكتاب على غرار كتب الرحلات المعروفة لابن جبير وابن بطوطة مثلاً ، فهو يختلف عنهما في نمطه ، إذ يقتصر مؤلفه على تسجيل ظواهر خاصة من الحياة يعرضها في خدمة هدفه الأساسي ، الترجمة لنفسه والتعريف بحياته ، وهي حياة أغنت مادة الكتاب بتنقل صاحبها في غرب البلاد الإسلامية وفي بعض أجزائها الشرقية ، فقامت بذلك على السفر والرحلة . ومن هنا ، وبهذا المفهوم يتأتى اهتمامنا بالكتاب وإن ضيق ابن خلدون مناظيره عن قصد ، محكوماً بهدف الكتاب ، فقصر اهتمامه على مجالات محددة ، وفي نواح بعينها ، أبرزها لتكون صلب الكتاب ومحوره .

وحياة ابن خلدون بخصبها وغناها ، وشخصيته بتعدد جوانبها وتنوع مزاياها ، ليست مدار اهتمام هذه الدراسة ولا محل نظرها حتى ولو من الناحية التي أولاها اهتمامه في كتابه . ويكفينا أن نقول أن حياة ابن خلدون لم تكن كحياة الآحاد العاديين تسير في هدوء واستقرار ، وإنما كانت حياة صاخبة مضطربة ، إذ ارتبطت بحياة كثير من الدويلات والحكام في الغرب والشرق ، ففاض كتابه من هذه الناحية بما كان يخوض فيه من مكايد ومؤامرات ، حيث نهض طوال ما يزيد على نصف قرن من الزمان بأعباء وظائف ديوانية وسياسية وقضائية ، وتقلب في خدمة القصور والدول في المغرب والأندلس ومصر ، يدرس أحوالها ويحلل أمورها ، ويتغلغل بين القبائل يتأمل طبائعها وتقاليدها وأحوال حياتها . وقد انقطع فترات من حياته إلى الدراسة وعكف على التأليف يفيض من علمه وخبراته في مؤلفاته المهمة ، ويطبعها بخصائص شخصيته ومزاياها ، فجاء كتابه (التعريف) ليعكس شخصية ابن خلدون المؤرخ والأديب أكثر مما يعكس شخصية ابن خلدون العالم الاجتماعي أو الرحالة . ولا غرو في ذلك ، فهو إنما يترجم

لنفسه من خلال تاريخ الدويلات التي عاصرها وعاش أحداثها ، وقد صنع كثيراً من هذه الأحداث ، بل وشارك في خلق بعض تلك الدول أو الحكومات التي مثلت الأدوار ، وتبادلت الظهور والاختفاء على مسرح التاريخ في الشمال المغربي من دولة الحفصيين إلى دولة بني عبد الواد وإلى بني مرين وغيرهم . وقد امتد نطاق عمله إلى دولة بني الأحمر في غرناطة عندما هاجر إلى الأندلس بعد أن سدت في وجهه قصور المغرب وأصبح موضع ريبة فيها . ولم يقتصر نشاطه على المغرب والأندلس وحسب ، وإنما امتد أيضاً إلى مصر مع حكم الظاهر قلاوون . فتولى التدريس في الأزهر وفي بعض المدارس الكبيرة فيها ، وتولى منصب قاضي قضاة المالكية عدة مرات . وقد عاصر غزو المغول أيام تيمورلنك لبلاد الشام ، وشارك في مقابلته في دمشق في وفد من العلماء . كل هذه الأحداث في مغرب العالم الإسلامي وفي شرقه دوّنها ابن خلدون من خلال تعريفه بنفسه لمشاركته فيها وصنعه لبعضها . ولم يقتصر تعريفه بنفسه على عرض هذه الجوانب العامة من حياته ، فإنه تناول في ترتيب منطقي جوانب حياته الخاصة ، فذكر لنا نسبه وتكوينه العلمي ، وأفاض في ذلك إفاضة دقيقة ، فذكر شيوخه الذين أخذ عنهم ، وترجم لبعضهم ترجمات خاصة مطولة ، ولم يكتف بذلك ، بل ذكر الكتب التي درسها على كل منهم وإجازاته العلمية ، وكان في ذلك كله دقيقاً كل الدقة . ومن الملاحظ أن شخصية القاضي بعلمه ورزانته ، وشخصية المؤرخ بتحقيقه وتدقيقه ، تسيطران على ابن خلدون في وصفه للأشخاص ، فهو يتناول في الحديث عن مشايخه مناقبهم وعلمهم وكتبهم وبالتالي مشيختهم . وأبرز وصف سجله ما قاله في تيمورلنك بعد أن كان لقيه في دمشق ، وهو وصف ينم عن جوانب اهتمامه وتحقيقه ، يقول « وهذا الملك (تمر) من زعماء الملوك وفراعنتهم ، والناس ينسبونه إلى العلم ، وآخرون إلى اعتقاد الرفض ، لما يرون من تفضيله لأهل البيت ، وآخرون

إلى انتحال السحر ، وليس من ذلك كله في شيء . إنما هو شديد الفطنة والذكاء ، كثير البحث واللجاج بما يعلم وبما لا يعلم . عمره بين الستين والسبعين ، وركبته اليمنى عاطلة من سهم أصابه في الغارة أيام صباه ، على ما أخبرني ، فيجرها في قريب المشي ، ويتناوله الرجال على الأيدي عند طول المسافة ، وهو مصنوع له ، والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده »[٢].

ويبدو أن شخصية المؤرخ العلمية التي استولت على إدراك ابن خلدون وذهنه في هذا الكتاب قد أخمدت ملكة الوصف الجغرافي لديه ، فلم يطرق في هذا المجال إلا ما قاله في وصف القاهرة « . . رأيت حضرة الدنيا وبستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج الذر من البشر وإيوان الإسلام ، وكرسي الملك ، تلوح القصور والأواوين في جوه ، وتزهر الخوانك والمدارس بآفاقه ، وتضيء البدور والكواكب من علمائه ، وقد مثل بشاطىء بحر النيل نهر الجنة ، ومدفع مياه السماء ، يسقيهم النهل والعلل سيحه ، ويجبي إليهم الثمرات والخيرات ثجه ومررت في سكك المدينة تغص بزحام المارة ، وأسواقها تزخر بالنعم . وما زلنا نحدث عن هذا البلد ، وبعد مداه في العمران واتساع الأحوال »[٣]. وتطبيقاً لمنهجية علمية يذكر أقوال بعض شيوخه وأصحابه عنها ، فأبو عبد الله المقري يقول له وقد مر بها عائداً من الحج « من لم يرها لم يعرف عزّ الإسلام » ، وأبو العباس بن إدريس يقول له فيها « كأنما انطلق أهله من الحساب » ، مشيراً بذلك إلى كثرة أممه وأمنهم العواقب . وينقل عن أبي القاسم البرجي في ذلك قوله « إن الذي يتخيله الإنسان ، فإنما يراه دون الصورة التي تخيلها ، لاتساع الخيال عن كل محسوس ، إلا القاهرة ، فإنها أوسع من كل ما يتخيل فيها »[٤]. وفيما عدا ذلك فلا نراه يتعرض لوصف ذي بال ، فهو يحج بيت الله الحرام ويعود ولا يذكر شيئاً أكثر من طريق الذهاب والإياب ، فلا يتعرض لوصف مكة أو الكعبة أو أي مشعر من مشاعر الحج . وكذلك فهو يزور بيت المقدس

وبيت لحم ومدفن الخليل فلا يزيد على قوله « ووصلت القدس ، ودخلت المسجد ، وتبركت بزيارته والصلاة فيه ، وتعففت عن الدخول إلى القمامة لما فيها من الإشادة بتكذيب القرآن ، إذ هو بناء أمم النصرانية على مكان الصليب بزعمهم ، فنكرته نفسي ، ونكرت الدخول إليه وقضيت من سنن الزيارة ونافلتها ما يجب ، وانصرفت إلى مدفن الخليل عليه السلام ، ومررت في طريقي إليه ببيت لحم ، وهو بناء عظيم على موضع ميلاد المسيح ، شيدت القياصرة عليه بناء بسماطين من العمد الصخور ، منجدة مصطنعة ، مرقوماً على رؤوسها صور لملوك القياصرة ، وتواريخ دولهم ، ميسرة لمن يبتغي تحقيق نقلها بالتراجمة العارفين لأوضاعها ، ولقد يشهد هذا المصنع بعظم ملك القياصرة وضخامة دولتهم »[٥].

ويبدو كذلك أن الحياة الاجتماعية لم تكن موضوع اهتمام ابن خلدون إذ لم تجد لديه أي اهتمام أو ذكر لها إلا بمقدار ما يتضمن سرده للأحداث التي مر بها في حياته ومع ذلك فقد أجاد الحديث في فساد القضاة وخراب ذمم الكتاب والمفتين في مصر ، وفي محاولاته إصلاح الأمر. يقول في حديث طويل جامع ما نقتضب منه تالياً « . . فقد كان البر منهم مختلطاً بالفاجر ، والطيب ملتبساً بالخبيث ، والحكام ممسكون عن انتقادهم ، متجاوزون عما يظهرون عليه من هناتهم لما يموهون به من الاعتصام بأهل الشوكة ، فإن غالبهم مختلطون بالأمراء ، معلمين للقرآن ، وأئمة في الصلوات ، يلبسون عليهم بالعدالة ، فيظنون بهم الخير ، ويقسمون لهم الحظ من الجاه بتزكيتهم عند القضاة ، والتوسل لهم ، فأعضل داؤهم وفشت المفاسد بالتزوير والتدليس بين الناس منهم ، ووقفت على بعضها فعاقبت فيه بموجع العقاب ، ومؤلم النكال . . وكان منهم كتاب لدواوين القضاة ، والتوقيع في مجالسهم ، قد دربوا على إملاء الدعاوى ، وتسجيل الحكومات ، واستخدموا للأمراء فيما يعرض لهم من العقود بإحكام

كتابتها ، وتوثيق شروطها ، فصار لهم بذلك شغوف على أهل طبقتهم ، وتمويه على القضاة بجاههم ، يدرعون به مما يتوقعونه من عتبهم . . وفشا في ذلك الضرر في الأوقاف ، وطرق الغرر في العقود والأملاك . فعاملت الله في حسم ذلك بما آسفهم عليّ وأحقدهم . . »[٦] .

وكما خمدت ملكة الوصف عند ابن خلدون المؤرخ فقد ضمرت أحاسيسه الشخصية فبدا قاسياً إلى حد كبير وحرمنا من استشفاف أية مشاعر إنسانية في بعض المواقف التي كان المجال فيها متسعاً لغمر من هذه المشاعر والأحاسيس ، كما في حديثه عن الطاعون الذي جرف آلاف الناس وأودى بأبويه وبكثير من مشيخته عام ٧٤٩ ، فهو لا يزيد على أن يقول فيه « لم أزل منذ نشأت وناهزت مكباً على تحصيل العلم ، حريصاً على اقتناء الفضائل ، متنقلاً بين دروس العلم وحلقاته ، إلى أن كان الطاعون الجارف ، وذهب بالأعيان ، والصدور ، وجميع المشيخة ، وهلك أبواي ، رحمهما الله »[٧] . ويفيض شعوره وهو يتحسر على أستاذه ابن عبد المهيمن الذي هلك في هذا الطاعون أيضاً ، فلا يقول أكثر من « ثم جاء الطاعون الجارف ، فطوى البساط بما فيه ، وهلك عبد المهيمن فيمن هلك ، ودفن بمقبرة سلفنا بتونس لخلة كانت بينه وبين والدي ، رحمه الله ، أيام قدومهم علينا »[٨] . وأكثر من هذا فإن الإنسان فيه يتعالى على مشاعره ، ويرقى إلى درجة العالم وحد الجلافة وهو يذكر هلاك زوجه وبناته في بحر الإسكندرية في مركب غرق بهم ، وقد استقدمهم من تونس بشفاعة سلطان مصر في شأنهم عند سلطان تونس فلا يزيد على تسجيل هذا الحادث المؤلم في ثلاث مناسبات على أن يقول « . . فما هو إلا أن وصلوا مرسى الإسكندرية ، فعصفت بهم الرياح وغرق المركب بمن فيه وما فيه ، وذهب الموجود والمولود ، فعظم الأسف واختلط الفكر »[٩] وفي المرة الثانية لا يزيد على قوله في ذكر غرقهم « . . وعظم الأسف ، وحسن العزاء ، والله قادر على ما

يشاء »[١٠] . أما في المرة الثالثة وكانت قد اصطلحت عليه الهموم ، وكثر عليه الشغب بمناصبته العداء من قبل أهل الدولة في مصر حتى اضطر إلى الخروج عن منصب القضاء ، فيقول « . . فكثر الشغب عليّ من كل جانب ، وأظلم الجو بيني وبين أهل الدولة ، ووافق ذلك مصابي بالأهل والولد ، وصلوا من المغرب في السفين (كذا) فأصابهم قاصف من الريح فغرقت وذهب الموجود والسكن والمولود ، فعظم المصاب والجزع ورجح الزهد ، واعتزمت على الخروج عن المنصب »[١١] .

وإذا كان العالم المؤرخ في ابن خلدون قد طغى على الإنسان فيه وهو يؤرخ هذه الأحداث الأليمة ، فإن الضعف الإنساني كثيراً ما يتغلب على ابن خلدون ، رجل الدولة ، وفي بعض مواقفها ما يكفي « لتوسيطه » أو لدحرجة رقبته ، فتذله تشوفات الحياة وتشوقاتها ، ويهيجه الشوق لأهله وأولاده ، فتتبدى لمسات إنسانية حانية من العملاق المنهار . ومن أمثلة ذلك ما يخاطب به شعراً أبا عنان لإطلاق سراحه وقد سجنه إذ ثبت تآمره عليه برغم ما ناله من إحسانه ، يقول في قصيدة عدتها نحو مائتي بيت :

وإني على حكم الحوادث نازل ... تسالمني طوراً وطوراً تحارب

سلوتهم إلا ادكار معاهد ... لها في الليالي الغابرات غرائب

وأن نسيم الريح منهم يشوقني ... إليهم وتصبيني البروق اللواغب[١٢]

ونرى ابن خلدون المؤرخ يغرق في غمر من شعور ابن خلدون الإنسان وهو يهنىء السلطان عمر بن عبد الله (من سلاطين الموحدين سنة ٧٦٣) بالعيد ، ويرجوه السماح له بالانطلاق إلى بلده في إفريقيا وكان قد وقع بينه وبين السلطان شيء من الجفوة والإعراض لشعور ابن خلدون بأنه قصر في حقه عما يسمو إليه ، فأنشده في قصيدة طويلة يتشفع فيها لديه بأهله وبناته ، معلناً زهده في طلب العلا والمجد يأساً من جموح الأيام وحرانها ،

ويتذلل له لغربته وضعفه تذلل المهيض الجناح ، الكسير الخاطر ، يقول :

«أجرني فليس الدهر لي بمسالم	إذا لم يكن لي في ذراك مقيل
ووالله ما رمتُ الترحل عن قلى	ولا سخطة للعيش فهو جزيل»
«ولكن نأى بالشعب عني حبائب	شجاهن خطب للفراق طويل
يهيج بهن الوجد أني نازح	وأن فؤادي حيث هن حلول
عزيز عليهن الذي قد لقيته	وأن اغترابي في البلاد يطول
توارت بأنبائي البقاع كأنني	تخطفت أو غالت ركابي غول
ذكرتك يا مغني الأحبة والهوى	فطارت بقلبي أنه وعويل
أأحبابنا والعهد بيني وبينكم	كريم وما عهد الكريم يحول
إلام مقامي حيث لم ترد العلى	مرادي ولم تعط القياد ذلول
أجاذب فضل العمر يوماً وليلة	وساء صباح بينها وأصيل
أما لليالي لا ترد خطوبها	ففي كبدي من وقعهن فلول
يروعني من صرفها كل حادث	تكاد له صمم الجبال تزول»(١٣)

ولقد عرض ابن خلدون بعض قدراته الأدبية في هذا الشعر وفي بعض القصائد والرسائل النثرية الأخرى التي أوردها في كتابه بمناسبات مديح أو تشفع لدى بعض السلاطين أو وزرائهم مما يدل على تحليه بملكة أدبية عرضها في هذا الكتاب إلى جانب ما عرض من قدرته في التأريخ خاصة .

منهجه وأسلوبه :

يتضح في الكتاب أن المؤلف محكوم بسوق الأحداث وقصها لأنه يؤرخ حياته أو حياة الدول التي اتصل بها ، وبرغم ما يكمن في هذا السرد من تدقيق وتحقيق فإن مادته لا تجف بين يدي صانعها ، فهو يطعمها بكثير من الأخبار الأدبية ، فيذكر بعض الرسائل والأشعار والأخبار التي ترده برغم خروجها عن غرض الكتاب في التعريف بالمؤلف ، لأن فيها ـ كما يرى ـ تحقيقاً لبعض الواقعات المذكورة في أماكنها من الكتاب . ويلجأ ابن

خلدون في بعض الأحيان إلى تلخيص الأحداث المهمة في بداية كتابته مرحلة جديدة بعد أن يكون الاستطراد قد باعد بين الأحداث أو فصل بين حلقات تسلسلها . ونظراً لتقديره لقيمة الحضارة الإنسانية وصلتها بالتاريخ نراه يلجأ أحياناً إلى مقدمة تاريخية في مطلع بعض أجزاء كتابه كما فعل عند حديثه عن فتنة الناصري إذ يسوق الخبر عنها بعد تقديمه كلاماً في أحوال الدول ، فيطلعنا على أسرار في تنقل أحوال الدول بالتدريج إلى الضخامة والإستيلاء ثم إلى الضعف والاضمحلال ، معتصراً نظريته المشهورة في قيام الدولة واضمحلالها كما ترد في مقدمته المعروفة . وكما فعل أيضاً في حديثه عن سفر السلطان الناصر فرج من مصر إلى الشام لمدافعة التتر ، فقد ذكر كيف انساق الملك لهؤلاء التتر واستقرت الدولة الإسلامية فيهم لذاك العهد فأغرق في سياحة تاريخية عاد خلالها إلى بدء الخليقة وإعمار الله الأرض بأصناف البشر . والكتاب بأجمعه ، فيما عدا هذه الاستطرادات ، يختلط فيه التاريخ العام للدول التي تحدث عنها ابن خلدون وتاريخ حياته الشخصية . ويمتزج التاريخان في كثير من الأحداث ، ويتعانقان كلاً واحداً في حياة الدول وحياة هذا الرجل ، فقد كان رجل دولة ، وصانع حكومات .

أما بالنسبة لأسلوبه في هذا الكتاب ، فلم يخرج إلا نادراً عما هو معروف عن ابن خلدون من أنه من كبار أئمة الأدب وأعلام البيان العربي ومن أبرز المجددين في أسلوب الكتابة العربية . فقد تمرد على أسلوب الكتابة النثرية الذي كان سائداً في عصره ، وكانت تكبله قيود السجع والمحسنات البديعية ، واحياً أسلوب العربية الأصيل في عهودها الذهبية السابقة ، كما وصل على يد عبد الحميد الكاتب في عصر الأمويين وعلى يد الجاحظ في العصر العباسي ، هذا الأسلوب الذي يتميز بالسهولة والوضوح ، ودقة التعبير ، وقوة التدليل والترابط ، وحسن الأداء والتناسق ، إذ يعني بتوضيح

المعنى أكثر من عنايته بتزويق اللفظ . ويشير ابن خلدون نفسه إلى هذا الأسلوب وتفرده فيه بين سائر كتاب عهده فيقول في كتابته للرسائل « . . وكان أكثرها يصدر عني بالكلام المرسل . . فانفردت به يومئذ ، وكان مستغرباً عندهم بين أهل الصناعة »[١٤] . وقد طغى هذا الأسلوب على المؤلف في هذا الكتاب كما في سائر كتبه إلا في مواطن قليلة جارى فيها مكرهاً الأسلوب المسجع الركيك في بعض قطع قصيرة من رسائله إلى صديقه لسان الدين بن الخطيب مجاملة له في أسلوبه مع اعترافه بقصوره عنه في ذلك ، يقول فيه « وكان الوزير ابن الخطيب آية من آيات الله في النظم والنثر ، والمعارف والأدب ، لا يساجل مداه ، ولا يهتدى فيها بمثل هداه »[١٥] .

تقويم الكتاب :

إن هدف الكتاب كما هو واضح التعريف بمؤلفه وبرحلته غرباً وشرقاً ، وهو يقوم في معظمه على مزج بين التاريخ العام والترجمة الذاتية . وبذلك « تدخل هذه الترجمة من بعض نواحيها في الفن التاريخي الذي اشتهر باسم (الإعترافات) ، كاعتراف الغزالي في كتابه (المنقذ من الضلال) واعترافات جان جاك روسو في كتابه (الإعترافات)[١٦]» ، ولذلك بدأ المؤلف في الكتاب مؤرخاً أكثر منه رحالة جاب أنحاء (الغرب والشرق) ، إذ جاءت رحلته متضمنة في تاريخه ، ومسيرة في سياق أحداثه التي عاشها في داخلها عن قرب أحياناً ، وفي خارجها عن بعد أحياناً أخرى ، فأخذت عليه جل اهتمامه ، ومعظم عنايته . وبهذا نفسر قلة ما سجله من مشاهدات الرحالة فهو لم يكن يترحل طلباً للرحلة في ذاتها وإنما تحت قسر الأحداث في الغالب . وكان يمكن حقاً أن يفيض ابن خلدون في وصف رحلاته وقد كان يروح ويجيء في ظروف تبلغ من قسوتها في بعض الأحيان أن يكون مشرداً عرضة للقتل ، وقد كانت له صلة وثيقة بالقبائل في المغرب العربي ولكنه لم

يعرض في شيء إلى حياتها . ولربما اكتفى من ذلك بما عرضه في كتبه الأخرى وخاصة (الإعتبار) الذي يعد التاريخ في كتابنا تلخيصاً للتـاريخ فيه .
وهكذا فإن شخصية المؤرخ حرمتنا كثيراً من ملاحظات الرحالة ، فلم يحدثنا شيئاً عن حياة مصر في زمانه إلا في أحوال القضاء فيها وفساد رجاله ، ولم يحدثنا شيئاً عن أخبار حجه مرتين ، أو عن زيارته فلسطين أو دمشـق إلا مقابلته لتيمورلنك ومن باب التاريخ لا أكثـر . وليت هذا العالـم الكبـير أتحفنا ببعض المشاهدات والأحداث الأخرى ذات الدلالة على غرار ما أخبر به عن مقابلته ليتمورلنك وهديته له ، وخبر بغلته التي طلبها منه وأرسل له ثمنها إلى مصر بعد عودته ، فرفع ابن خلدون من شأنها وربطها في ساحة التاريخ ، فأصبحت (بغلة ابن خلدون) من البغلات التاريخية الشهيرة في عالم البغال . ومثل هذه الأحداث الصغيرة التي تكثر عند الرحالة ، نادرة إلى حد العدم عند ابـن خلـدون ممـا يعتصر شيئـاً من خصـائص الرحلـة ومزاياها ، ومهما عظمت قيمة الكتاب التاريخية فإنها تتضاءل أمـام كتابـه (العبر) الذي يعد الموسوعة لتاريخه الذي أورده في (التعريف) . ومن هنا فإننا نعود فنقول أن أهمية الكتاب إذن تتأتى عن تعريفه المفصل الـدقيق بنفسه وترجمته لذاته ترجمة العالم الصدوق . ولقد بلغ في هذه الترجمة حداً من الصراحة يحمد له ويشكر عليه ، فبلغ به الصدق والصراحة إلى أن يذكر من صفاته ما يعد ذمياً لدى الناس كتقلبه المستمر على أولياء نعمته وأسياده .
وهو تقلب يعكس بلا شك شخصية ذات طموح لا يحد ، وجرأة بالغـة كادت تورد صاحبها موارد الموت مرات عديدة . وحياة ابـن خلـدون كما أوردها في (التعريف) تبرهن على عبقرية فذة ، فمثل هذه الشخصية التي جمعت بين رجل الدولة الجريء والمؤرخ والفقيه وعالم الاجتماع لهي شخصية نادرة لا تتكرر كثيراً في كل عصر ولا يقلل من جرأة هذا الرجل ما أشرت إليه سابقاً من مواقف ضعف وهوان فهو إنسان قبل كل شيء حري به أن يخاف

في وقت لا تساوي فيه رقبة الرجل سل نصاب . ولـكن يؤخـذ عليه هذا التلون والتقلب اللذين لم يحاول إنكارهما .

ومما يسجل له في كتابه محاولته التحقيق في بعض الأمور ، وليس ذلك غريباً على عالم مؤسس لعلم الإجتماع ، وصاحب نظرية في نشوء الـدول وأعمار الأجيال ، فقد حاول تحقيق نسبه وعدد أجـداده العشرة السابقـين عليه في دخول الأندلس على أساس نظريته في عمر الأجيال . ولكن مما يؤخذ عليه ، وهو العالم العظيم ، أخذه بما كان متداولاً من أن الجنة هي منابع النيل ، فسماه نهر الجنة ومدفع مياه السماء دون تحقيق أو تدقيق إلا إذا كانت عبارته أدبية محضة . ومن ذلك أيضاً أخذه دون تحقيق بما كان متداولاً عن أهل الجغرافيا عن توزيع اعتمار الأرض وعن أن المعمور منها هو مقدار الربع في وسط البقعة التي انكشفت من الماء فيه ، ومن قسمة هذا المعمـور إلى سبعـة أجـزاء يسمونهـا الأقـاليم « مبتـدأة من خط الإستـواء بـين المشرق والمغرب ، وهو الخط الذي تسامت الشمس فيه رؤوس السكان ، إلى تمام السبعة أقاليم ، وهذا الخط في جنوب المعمور وتنتهي السبعة الأقـاليم في شماله ، وليس في جنوب خط الإستواء عمارة إلى آخر الربع المنكشف لإفراط الحرفية ، وهو يمنع من التكوين وكذلك ليس بعد الأقاليم السبعة في جهة الشمال عمارة لإفراط البرد فيها ، وهو مانع من التكوين أيضاً . . »[١٧]

ومهما يكن من أمر الكتاب فقد أبدع صاحبه في مجال التعريف بنفسه ، وكان مجلياً في ذلك ، وأورد لنا نماذج شعرية ونثرية له ولغيره من الكتاب ، وعرفنا على مشيخته بكاملها ، وإن قصر في مجـال الحـديث عن رحلاتـه كرحالة .

الهوامش :

(١) علي عبد الواحد وافي ـ عبد الرحمن بن خلدون (سلسلة « أعلام العرب ») : ١٢٤

(٢) التعريف (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥١) : ٣٨٢ ـ ٣٨٣

(٣) م . ن : ٢٤٦ ـ ٢٤٧

(٤) انظر التعريف : ٢٤٧ ـ ٢٤٨

(٥) م . ن : ٣٥٠

(٦) التعريف : ٢٥٥ ـ ٢٥٦ . انظر كذلك حتى صفحة ٢٥٩ .

(٧) م . ن : ٥٥

(٨) م . ن : ٢٧

(٩) م . ن : ٢٨٥

(١٠) م . ن : ٣١١

(١١) م . ن : ٢٥٩

(١٢) م . ن : ٦٧

(١٣) م . ن : ٧٨ ـ ٧٩

(١٤) التعريف : ٧٠

(١٥) م . ن : ١٥٥ ، من نماذج سجع ابن خلدون انظر صفحة ٩١ .

(١٦) علي عبد الواحد وافي ـ المرجع السابق : ٢٣٩

(١٧) التعريف : ٣٥١

٤ ـ رحلة رفاعة الطهطاوي إلى باريس

هي رحلة سجلها رفاعة رافع الطهطاوي في كتابه « تخليص الإبريز في تلخيص باريز » . وكان هذا الشيخ الأزهري قد زار باريس وأقام بها مدة خمس سنوات كأحد أفراد أول بعثة علمية أرسلها محمد علي حاكم مصر ضمن برنامجه الإصلاحي الذي كان قد تبناه بعد خروج جيش نابليون من مصر . والباعث الأول لرفاعة الطهطاوي على تقييد رحلته هو الرغبة في التنبيه على ما يقع في سفرته وعلى ما يراه ويصادفه من الأمور الغريبة والأشياء العجيبة ، ليكون نافعاً في كشف القناع عن محيا (عرائس الأقطار) ، وليبقى دليلاً يهتدي به إلى السفر إليها طلاب الأسفار ، خصوصاً وأنه لم يظهر حتى ذلك الوقت شيء باللغة العربية في تاريخ مدينة باريس ولا في تعريف أحوالها وأحوال أهلها . وكانت هذه هي أيضاً رغبة وتوصية بعض أقارب الشيخ ومحبيه ، ولا سيما شيخه حسن العطار الذي كان مولعاً بسماع عجائب الأخبار والاطلاع على غرائب الآثار[1] . أما الباعث الثاني له على تقييدها فهو رغبته في « حث ديار الإسلام على البحث عن العلوم البرانية والفنون والصنايع » ، التي رأى من كمالها والانتفاع بها في بلاد الإفرنج ما أبقاه طوال مدة إقامته في حسرة على تمتعها بذلك دون ممالك الإسلام لخلوها من ذلك كله . ولهذا لم تقتصر رحلة الطهطاوي على ذكر السفر ووقائعه ، وإنما اشتملت أيضاً على ثمرته وغرضه ، وعلى إيجاز العلوم والصنايع المطلوبة ، وحتى فإنه يمكن أن يقال بأن هذا الجزء الأخير قد غطى القسم الأكبر من كتاب الشيخ ، إن لم يكن أوفى الأجزاء أيضاً .

ولقد كان الشيخ عند حسن ظن أقاربه ومحبيه في سرعة تقييد الرحلة ، إذ ما أن ودعهم في القاهرة عصر يوم الجمعة ، ثامن يوم من شعبان سنة واحد وأربعين ومائتين بعد الألف ، حتى راح وهو على ظهر النيل يعد نفسه لتدوين ملاحظاته التي بدأ يوليها اهتمامه منذ دخولهم الإسكندرية التي ظهرت له ، دون غيرها من بلاد مصر ، أنها قريبة الميل في وضعها وحالها إلى بلاد الإفرنج لكثرتهم بها ولسريان شيء من اللغة الطليانية بين أغلب السوقة فيها . ولا يفوت الشيخ أن يخلد في كتابه الحثوات العظيمة من الماء المالح التي تجرعها من البحر قبل ركوبه لدفع ألمه ، كما علمه بعض من سافر من العلماء إلى استانبول ، أو تلك السفينة الحربية الفرنسية التي أقلتهم إلى مرسيليا طوال ثلاثة وثلاثين يوماً عبر البحر . وهو خلال هذه الفترة لا يبخل علينا بوصف حياة الإفرنج على ظهر تلك السفينة ، فيحمد لهم محافظتهم على النظافة برغم أنه (ليس عندهم مثقال ذرة من الإيمان) . ويذكر مرورهم على جزيرتي كريت وصقلية وعلى مدينتي مسينة ونابولي ثم جزيرة (قرسقة) حتى وصولهم إلى مرسيليا . وبعدها إلى باريس عن طريق البر بالعربات . ومن الطريف أن يعرض علينا نموذجاً على قيود السفر في ذلك الوقت ، فبعد خمسة عشر يوماً من السفر يقول « رسينا على مدينة مسينا ، ولم نخرج من السفينة أبداً لأنهم لا يمكنون من يجيء من البلاد الشرقية إلى بلادهم أن يدخلها إلا بعد الكرنتينة ، وهي مكث أيام معلومة لإذهاب رائحة الوباء ولكنهم يجيئون الإنسان بسائر ما يحتاج ، ويناولهم الثمن فيضعونه في ماعون فيه خل ونحوه مع التحفظ التام[٢] . وفي مرسيليا يتحدث رفاعة الطهطاوي عمن خرج مع الحملة الفرنسية من نصارى مصر والشام وبعض المسلمين (الذين تنصروا والعياذ بالله) .

ويبدو أن اهتمام الشيخ رفاعة كان منصباً أكثر ما يكون على مشاهداته وملاحظاته في باريس أكثر من غيرها من المدن الفرنسية ، ولربما كان ذلك

أمراً طبيعياً بحكم إقامته الطويلة فيها بالذات . فقد أولاها فعلاً كل اهتمامه فعرض إلى تسميتها وتخطيطها من جهة وضعها الجغرافي وطبيعة أرضها ومزاج إقليمها وقطرها ، وتحدث عن قناطرها على نهر السين الذي يخترقها ، وعن قنوات الماء والصهاريج فيها ، وعن مطاياها من العربات الكثيرة التنوع والقرقعة التي لا تنقطع في النهار أو في الليل . وهو يسهب كثيراً في الحديث عن أهل باريس وطباعهم وعادة سكناهم ، ويصف بيوتهم ونظافتها وترتيبها ولطائفها ، وأغذيتهم وعاداتهم في المأكل والمشرب . ويدهش الأزهري ، ابن الصعيد ، في ذلك الوقت نظام المائدة الذي يراه لأول مرة في باريس ، فلا يملك إلا أن يصفه بأنه ترتيب عظيم جداً ، وفيه يقول « وعادة الفرنساوية الأكل في طباق كالطباق العجمية أو الصينية لا في آنية النحاس أبداً . ويضعون على السفرة دائماً قدام كل إنسان شوكة وسكيناً ، وملعقة ، والشوكة والملعقة من الفضة . ويرون أن من النظافة أو الشلبقة أن لا يمس الإنسان الشيء بيده . وكل إنسان له طبق قدامه بل وكل طعام له طبق وقدام الإنسان قدح يصب فيها ما يشربه من قزازة عظيمة موضوعة على السفرة ، ثم يشرب فلا يتعدى أحد على قدح الآخر ، فأواني الشرب دائماً من البلور والزجاج وعلى السفرة عدة أواني (كذا) صغيرة من الزجاج أحدها فيه ملح والآخر فيه فلفل وفي الثالث خردل إلى آخره . وبالجملة فآداب سفرتهم وترتيبها عظيم جداً . وابتداء المائدة عندهم الشوربة واختتامها الحلويات والفواكه . . »[٣] . ويعجب الشيخ بكثير من طباع الفرنسيين وخصالهم التي يختصون بها بين كثير من النصارى ، كذكاء العقل ودقته ، وغوص ذهنهم في العويصات حتى أن عامتهم يعرفون القراءة والكتابة ويتعمقون مع غيرهم في الأمور ، فهم ليسوا من قبيل الأنعام كعوام أكثر البلاد المتبربرة . ويعجبه من خصالهم محبتهم الغرباء وميلهم إلى معاشرتهم خصوصاً إذا كان الغريب متجملاً بالثياب النفيسة ،

ويرى أن ما يحملهم على ذلك الرغبة والتشوف إلى السؤال عن أحوال البلاد وعوائد أهلها ليظفروا بمقصدهم في الحضر والسفر . ويذكر من طباعهم أيضاً ما هو معروف عنهم حتى اليوم من التطلع والتولع بسائر الأشياء الجديدة وحب التغيير والتبديل في سائر الأمور خصوصاً في أمر الملبس فإنه لا قرار له أبداً عندهم ، ولم تقف لهم إلى الآن عادة في التزيي .

وهو يراهم أقرب للبخل من الكرم مع أنهم يصرفون الكثير من الأموال في حظوظ النفس والشهوات الشيطانية واللهو واللعب ، وكذلك فهو يرى الرجال عندهم عبيداً للنساء مع عدم غيرة عليهن برغم قلة عفاف كثير من نسائهم[٤] . وأزهرية الشيخ ووقاره لم يمنعاه من التعرض للخوض في الكلام على نساء الفرنسيين وجمالهن وأزيائهن وبعض عاداتهن ، فصور حياة النساء في باريس في قوله « ونساء الفرنساوية بارعات الجمال واللطافة حسان المسايرة والملاطفة ، يتبرجن دائماً بالزينة ويختلطن مع الرجال في المنتزهات وربما حدث التعارف بينهن وبين بعض الرجال في تلك المحال سواء الأحرار وغيرهن خصوصاً يوم الأحد الذي هو عيد النصارى ويوم بطالتهم وليلة الإثنين في البارات والمراقص . . وكما قيل أن باريس جنة النساء . . وذلك أن النساء بها منعمات سواء بمالهن أو بجمالهن . . وملابس النساء ببلاد الفرنسيس لطيفة بها نوع من الخلاعة خصوصاً إذا تزين بأغلى ما عليهن . . ومن عوائدهن أن يحتزمن بحزام رقيق فوق أثوابهن حتى يظهر الخصر نحيفاً ويبرز الردف كثيفاً . . ومن خصال النساء أن يشبكن بالحزام قضيباً من صفيح من البطن إلى آخر الصدر حتى يكون قوامهن دائماً معتدلاً لا اعوجاج به ، ولهن كثير من الحيل ومن خصالهن التي لا يمكن للإنسان أن لا يستحسنها منهن عدم إرخائهن الشعور كعادة نساء العرب ، فإن نساء الفرنسيس يجمعن الشعور في وسط رؤوسهن ويضعن فيه دائماً مشطاً ونحوه . . ولا يمكن لهن أبداً كشف شيء من الرجلين بل هن دائماً لابسات

للجرابات الساترة للساقين خصوصاً في الخروج إلى الطرق »[٥] ومما يثير انتباهه عادة الرجال هناك في استعمال الشعور العارية لنحو الأقرع ورديء الشعر ، وفي اللحى والشارب للتقليد ، وهو يستغرب استعمال هذه العادة بين نساء القاهرة في زمانه . والشيخ رفاعة يرى أن أهل باريس غير متدينين ، فلا شغل لهم في أمور الطاعات بعد أشغالهم المعتادة المعاشية ، ولذا فإنهم يقضون حياتهم في الأمور الدنيوية واللهو واللعب ، ويتفننون في ذلك تفنناً عجيباً ، ويذكر متنزهاتهم العديدة كالتياترو ومحال الرقص المسماة البال والمواسم العامة والحدائق العظيمة وغير ذلك من المتنزهات . ومع أنه رأى هواء باريس في الجملة طيباً ومناسباً للصحة ، فقد أشار إلى التقلب السريع في طقسها بين الحر والبرد الشديدين حتى في اليوم الواحد . وقد لفت برد باريس انتباهه إلى عناية الفرنسيين بمدافىء النار في بيوتهم واعتبارها من زينة المحل ، فجره الحديث عنها إلى تبيين أهمية النار في الشتاء جرياً مع القول المعروف (النار فاكهة الشتاء) ، وفي ذلك يقول « ومن أعظم إكرام الضيف عندهم في الشتاء تقريبه جهة النار ولا عجب في ذلك . . ولله در القائل :

النار فاكهة الشتاء فمن يرد   أكل الفواكه شاتياً فليصطل

« وبالجملة فالتدفئة في الشتاء عند الفرنساوية جزء من المؤونة فهذا ما يستعينون به على البرد »[٦] . ولقد تأثر الشيخ رفاعة بما رأى من تقدم الحياة والحضارة في باريس ، لا سيما عندما قارنها بحياة بلاده المتأخرة آنذاك . فكان ذلك ، بالإضافة إلى جو النهضة والحركة الإصلاحية اللتين بدأهما محمد علي ، حافزاً على تفتيح ذهن الشيخ على مظاهر هذه الحياة الجديدة التي انتقل إليها ، ومحاولته تلقيح الحياة المصرية بالكثير من مظاهرها التي رضي بها ورآها لا تتعارض ، بل وتتفق مع ما في كتاب الله العزيز ، ومن هنا

يمكننا القول بأن بذرة الإصلاح الحقيقية قد زرعت في نفسه وبدأت تأخذ حظها من النمو الذي صادف مناخاً طيباً طوال خمس سنوات عاشها في بلد الحرية ، وكان إعجابه شديداً بكثير من مظاهر الحياة فيها ، فصمم على إطلاع مواطنيه على هذه المظاهر تنبيها لأذهانهم على آفاق الحياة الحقيقية المتقدمة ، وحثاً لهم على تطلبها والتطلع إلى تحقيقها في بلادهم . ومن هنا كان توفره ، وهو عضو البعثة في الترجمة ، على ترجمة أجزاء من الدستور (الشرطة) الفرنسي ، ونبذة من قانون الصحة وتدبير البدن وبعض النواحي العلمية المختلفة ليعرف عليها أهل بلاده من خلال كتابه الذي ألفه . وإنه لأمر على مقدار كبير من الأهمية أن ينشر رفاعة الطهطاوي في مصر تلك الأيام شيئاً من أنظمة تدبير الدولة الفرنسية توضح علاقة الملك بدواوين الدولة والوزراء ، وتبين « أن ملك فرنسا ليس مطلق التصرف وأن السياسة الفرنساوية هي قانون مقيد بحيث أن الحاكم هو الملك بشرط أن يعمل بما هو مذكور في القوانين التي يرضى بها أهل الديوان » ، وأن كتاب قانونهم « وإن كان غالب ما فيه ليس في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسوله ولكن يبين كيف حكمت عقولهم بأن العدل والإنصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد ، وكيف انقادت الحكام والرعايا لذلك حتى عمرت بلادهم »[٧] .

ووضع رفاعة الطهطاوي بعض مواد القانون الفرنسي التي تؤكد (حق الفرنساوي المنصوب لهم) ، أمام الشعب المصري ، كالمادة التي تعلن المساواة التامة بين جميع المواطنين أمام الشريعة وأمام طلب الوظائف ، والمادة التي تضمن الإستقلال الذاتي والحرية الشخصية وحرية الدين والرأي ما دام لا يمس القانون ، والمواد التي تحدد مكانة الملك ومسؤوليات الوزراء ومكانة دواوين الدولة وتؤكد استقلال القضاء وحقوق الناس التي يضمنها الديوان . وفي الغالب ، فإن الحديث عن ديوان رسل العمالات (مجلس

النواب الآن) الذين هم وكلاء الرعية ، وشروط انتخابهم ومهماتهم كان شيئاً جديداً على مصر بعد أن طال العهد على تجافي حكامها للشريعة الإسلامية . والطهطاوي لم يكن يترجم مثل هذه المواد الدستورية وحسب ، بل هو يشرحها ويعلق عليها أحياناً كأنه يتعمد أن يبين مواضع قوة الشعب وحقوقه وواجبات الحكام ، ففي تعليقه على المادة الأولى التي تعلن أن سائر الفرنسيين متساوون قدام الشريعة يقول « معناه سائر من يوجد في بلاد فرنسا من رفيع ووضيع لا يختلفون في أجزاء الأحكام المذكورة في القانون حتى أن الدعوة الشرعية تقام على الملك وينفذ عليه الحكم كغيره » . . . ومن هذا القبيل أيضاً قوله « وقد ضمنت الشريعة لكل إنسان التمتع بحريته الشخصية حتى لا يمكن القبض على إنسان إلا في الصور المذكورة في كتب الأحكام ، ومن قبض على إنسان في صورة غير منصوصة في الأحكام يعاقب عقوبة شديدة . . »[٨] ولم يقتصر على نقل هذا المظهر من مظاهر الحياة الفرنسية ، وإنما نراه يعجب باعتناء أهل باريس بالعلوم الطبية ، فيتحدث عن مكانتهم في علوم الطب والحكمة ، ويشير إلى كثرة المستشفيات والأطباء وتخصصاتهم وإلى بعض عادات التطبيب عندهم ، ويبدو من كلامه أن بيت الطبيب كان بمثابة العيادة المعروفة الآن ، كأن نظامها لم يكن معروفاً يومئذ ، يقول « وللطبيب ساعات معينة يمكث فيها قصداً في بيته لتلقي الناس »[٩] ، وتدفعه غيرته على أهله وبلاده إلى ترجمة نبذة من فن قانون الصحة وتدبير البدن ، لقصد استعمال جميع الناس بمصر لها لصغر حجمها ولعظم فائدتها ومنفعتها ، على شكل توجيهات صحية في توقي الأمراض والعلل وكيفية معالجتها ، وفي معالجة الناقه وفي شكل وصايا عامة في الصحة ، وتوجيهات في كيفية بناء البيوت الصحية . وكما عرف الطهطاوي على هذه الجوانب الحياتية السائدة في باريس ، فقد تعرض طويلاً لتقدم أهلها في مختلف العلوم والفنون والصنايع ، وبين كيف

انتشرت المعارف بينهم وبلغت أوجها ، وإن كان في علوم الحكمة حشوات ضلالية مخالفة لسائر الكتب السماوية ، ومن هنا فهو ينصح بأنه « يجب على من أراد الخوض في لغة الفرنساوية المشتملة على شيء من الفلسفة أن يتمكن من الكتاب والسنة حتى لا يغتر بذلك ، ولا يفتر عن اعتقاده وإلا ضاع يقينه »[١٠] . ويطيل في ذكر مظاهر هذا التقدم العلمي ومراكزه ، فيذكر مجامع العلماء في باريس والكليات والجمعيات العلمية المختلفة والمدارس المتنوعة وخزائن الكتب والمتاحف العلمية وبستان النباتات وحدائق الحيوان للتجارب الزراعية والحيوانية ، والمرصد السلطاني ودكاكين الكتبية وخاناتهم ، وكثرة المطابع والتأليف وإن كان المقصود من أكثرها الكسب لا النفع ، ولا ينسى أن يشير إلى ما في خزائن مكتباتهم من مخطوطات وكتب عربية . وهو يعد من معيناتهم على هذا التقدم سهولة لغتهم وسائر ما يكملها مما يسهل تعلمها ويعين على تفهم العلوم المكتوبة بها وتملكها . ويفرد بعض فصول كتابه للحديث عن اصطلاح اللغة الفرنسية وفن الكتابة وعلم البلاغة ويقارن ذلك بما هو معروف من اللغة العربية ويستعرض في فصول أخرى بعض معارفه وترجماته في علوم المنطق والحساب والجغرافية والتاريخ وغيرها . ولا ينسى الشيخ في باريس أنه طالب علم في البعثة التي أوفد فيها فيشير إلى آمال ـ ولي النعم ـ في سرعة تعلمهم ورجوعهم مما جعلهم يبدأون في تعلم تهجي اللغة وهم في مرسيليا قبل وصولهم إلى باريس حيث يوضع لهم نظام خاص للدراسة اليومية يتوزع أوقاتهم بين اللغة والتاريخ والحساب والهندسة والجغرافيا . وفي باريس يقيم الأربعون مبعوثاً في بيت واحد لمدة سنة ثم يفرقون بعدها جماعات جماعات في مكاتب متعددة ، ويعيشون في بيوت مخصوصة لتسهيل إتصالهم بأولاد الفرنسيين إعانة لهم على سرعة إتقان اللغة ، وهو يورد بعض فرمانات ولي النعم التي يحثهم فيها على التحصيل ، وهي على نوعين ، فمنها ما كان من باب ما

يسمى عند العثمانية إحياء القلوب ، ومنها ما كان من باب التوبيخ .
ويوقفنا الطهطاوي على أوجه اجتهاده وتفوقه وأعماله في الترجمة أثناء هذه الفترة مما جعله يستحق بعض جوائز التفوق على شكل هدايا من الكتب ، وإنه كانت له في هذه الفترة صلة قوية مع بعض المستشرقين الفرنسيين مثل المسيو (كوسين دي برسوال) و(دي ساسي) و(جومار) . ويثبت بعض رسائلهم في مدح أعماله وتشجيعه على بعض صفحات كتابه .

خصائص الرحلة وأسلوبها :

إن من أبرز ما يبدو من سمات رفاعة الطهطاوي في هذه الرحلة حبه الكبير لوطنه مصر ورغبته العظيمة في نهضته ويبدو هذا الحب المقيم في قلبه ، من خلل الموضوعات التي تعمد تعريف أهله بها ، ومن منهجه الذي اتبعه في المقارنة بين كثير من مشاهداته في أحوال باريس وبين أحوال القاهرة وحياة المصريين في أيامه ، مما يجعل سمة المقارنة هذه من أميز خصائص رحلته ، فهو ما إن يتحدث عن نهر السين ومائه والنزهات عليه حتى يثير ذلك في خاطره النيل ونزهاته ، وما أن يتحدث عن تربة فرنسا حتى يعقد مقارنة بينها وبين تربة مصر ، وهو يفضل وطنه على كل ما سواه ، فيقول « لو تعهدت مصر وتوفرت فيها أدوات العمران لكانت سلطان المدن ورئيسة بلاد الدنيا كما هو شائع على لسان الناس في قولهم (مصر أم الدنيا)[١١]» . وهذا المنهج في المقارنة يطول ويتسع ليشمل حمامات باريس والقاهرة ونصارى باريس وقبط مصر ، وبيوت الفرنسيين بلطائفها مع بيوت المصريين ، وغنى الفرنسيين الفاحش حتى أن المتوسط منهم أغنى من تاجر عظيم من تجار القاهرة ، ويبلغ به الأمر درجة التحسر وهو يرى ساحات باريس ترش بالماء وقت الحر ، فيقول إن « مصرنا أولى بهذا لغلبة الحر » .
ويصل إلى حد الجرأة عندما يقارن بين المصروفات الباهظة للمسؤولين في

مصر والتوفير المتبع في فرنسا ، وتدبير المصاريف ، « فمن ذلك عدم تعلقهم بالأشياء المقتضية للمصاريف » فالوزير عندهم ليس له أزيد من خمسة عشر خادماً حيث أن العسكري بمصر له عدة خدم[١٢] . ومن أطر مقارناته ، تلك المقارنة التي عقدها بين التياترو في باريس ولاعبيه من النساء والرجال وبين (العوالم) وأهل السماع في مصر[١٣] ، وكذلك ما يذكره في الرقص في كل من فرنسا ومصر ، يقول « ويتعلق بالرقص في فرنسا كل الناس وكأنه نوع من العياقة والشلبنة لا من الفسق ، فلذلك كان دائماً غير خارج عن قوانين الحياء بخلاف الرقص في أرض مصر فإنه من خصوصيات النساء لأنه لتهييج الشهوات ، وأما في باريس فإنه نط مخصوص لا يشم منه رائحة العهر أبداً ، وكل إنسان يغرم بامرأة يرقص معها »[١٤] . والخصيصة الثانية التي تتسم بها هذه الرحلة هي ـ الاستطراد ، وقد تعمد صاحبها ذلك تعمداً بقصد النفع ، فهو يقول « . . ووشحتها ببعض استطرادات نافعة ، واستظهارات ساطعة »[١٥] ، ومن أمثلة ذلك ما يورده من كيفية معرفة درجات الطول والعرض لمكان من الأمكنة وإفاضته في ذكر فروق الساعات بين مدن العالم ، وهو بصدد ذكر درجة العرض وخط الطول الذي تقع عليه باريس ، وهو يعرض ذلك « وإن كان يخرجنا عما نحن بصدده » كما يقول . ومن أمثلته أيضاً حديثه عن اللسان الفرنساوي ، وقد أورد في ذلك نبذة طويلة ، عقد فيها مقارنة بين جمال المحسنات في اللغة العربية واعتبارها ركيكة في الفرنسية وترجم بعض الأشعار الفرنسية إلى اللغة العربية وأفاض في تبيين أثر الترجمة على ما يترجم من لغة إلى أخرى . ومثل ذلك إيراده خطبة المستشرق (دي ساسي) في شرحه لمقامات الحريري لمجرد ذكره له .

وخصيصة ثالثة لا بد من أخذها بعين الاعتبار في كتاب رفاعة الطهطاوي ، أقصد كثرة إيراده الشعر سواء من نظمه أم من نظم سواه ، وهو يشير إلى ذلك ، وقد امتلأ كتابه بهذا الشهر بمناسبات مقبولة أو

بمناسبات يفتعلها افتعالاً . وهو ، حتى في تلك المناسبات المقبولة يفيض في الاستشهاد بالشعر كأن هدفه عرض معارفه في هذا المضمار . ومما تجدر الإشارة إليه أن استشهاده بالأحاديث وتضمينه للآيات القرآنية قليل إلى حد كبير ، ولربما يعود ذلك إلى أنه يتحدث عن مجتمع أجنبي ، لا مجال فيه لمحاجة على أساس الإسلام . ولا يعني هذا أنه كان بعيداً عن تأثير الدين ، بل على العكس فإن كثيراً من أحكامه وآرائه كانت محكومة بمفاهيم الدين لديه ، وبأثره عليه . اضرب مثلاً على ذلك مفاضلته التي يقيمها بين أقسام الدنيا الخمسة ويجعل فيها مزية الإسلام وتعلقاته الفيصل والمعيار ، يقول « فحينئذ تكون آسيا أفضل الجميع ، ثم تليها أفريقيا لعمارها بالإسلام والأولياء الصالحين خصوصاً باشتمالها على مصر والقاهرة ثم تليها بلاد

با لقوة الإسلام ووجود الإمام الأعظم ، إمام الحرمين الشريفين سلطان الإسلام فيها ثم بلاد الجزائر البحرية لعمارها بالإسلام أيضاً مع عدم تبحرها في العلوم كما هو الظاهر ، فأدنى الأقسام بلاد أمريكة حيث لا وجود للإسلام بها أبداً . . وهذا كله بالنظر للإسلام والعلوم الشرعية والشرف الذاتي فإن المراد بالشرف ما يعم الشرعي وغيره »[٦٦]. ومع ما يمكن أن يقال في هذه القسمة ، وليس هنا مجال لذلك ، فإن الصبغة الدينية واضحة تمام الوضوح لديه مما يمكن أن نعتبره خصيصة رابعة من خصائصه في هذه الرحلة .

أما من ناحية أسلوبه التعبيري ، فإنه يمكن أن يقال أن عبارته بسيطة لم يتكلف فيها التنميق ، ويطغى هذا الأسلوب على الجزء الأكبر من الكتاب ، وربما كان ذلك لكثرة ما في جعبته من معلومات يريد سردها والإخبار بها ، مما لم يتح له مجالاً للعناية البيانية ، ولا شك أن لصلته باللغة الفرنسية وترجمته عنها أثراً في ذلك أيضاً . وقد حاول فعلاً أن يسلك في كتاب « سلوك طريق الإيجاز وارتكاب السهولة في التعبير حتى يمكن لكل

الناس الوزود على حياضه »[١٧] . ومع هذا فإننا نراه يتعمد السجع في بعض أجزاء الرحلة كما في استهلاله الكتاب وفي وصفه الأشخاص أحياناً إلى درجة أن السجع يهبط بعبارته ويتدنى بفكرته ، بل ويخلق تناقضاً بين أجزائها ، فتكاد تنسحب إلى غير المقصود منها ، ومن ذلك ما يقوله في أحد زملائه من أفراد البعثة « إن حضرة مصطفى مختار بك أفندي قد بلغ درجة كبار الفرنساوية في علم إدارة المهمات العسكرية وقد حاز مرتبة سامية من العلوم ، وتمكن من المنطوق منها والمفهوم ، ولا شك أنه ممتاز بالعلوم التدبيرية وجامع لمعارف الديار الإفرنجية ، وسع الله به دائرة المعارف بمالك مصر والشام ، وجعله مقبولاً لدى ولي النعم الأكبر وسر عسكر نجله الضرغام ، وليس كل من اكتسب المعارف يصدر عنه عمل اللطائف ، قال الشاعر :

«وعادة السيف أن يزهو بجوهره وليس يعمل إلا في يدي بطل»[١٨]

وبالإضافة إلى هذا فنحن نقع له على بعض ترجمات في لغة ضعيفة ركيكة وحتى فإنه ليمكن القول بأن هذا الضعف والركاكة يتسربان إلى بعض عباراته مما يستغرب على الشيخ أن يكتب مثلها ، كما في ترجمته (القانون نامه) الذي صنع لهم لتدبير شأن دخولهم وخروجهم بعد انتقالهم إلى البنسيونات[١٩] . هذا ، وفي الوقت الذي نرى الشيخ يدخل بعض الألفاظ الأجنبية في كتابته مثل (تياترو وسبكتاكل ، ورسطراطورات، بمعنى - بيوت الأكل - ، وكوليج ، وجرنال والبوليتيقه وإيلجيا) فإننا لا نعدم له بعض الأخطاء اللغوية من مثل قوله « وصورة التلميذ رفاعة أنه قرىء (كذا) في المجلس دفتران (كذا)[٢٠]» .

تقويم الرحلة

تستمد رحلة رفاعة الطهطاوي قيمتها من مصدرين رئيسين ، أولهما

العصر الذي تمت وكتبت فيه ، وثانيهما صاحبها الذي عاشها ودوَّنها .
وبالنسبة لزمن الرحلة ، فمعروف أنها تمت أيام محمد علي والي مصر ، بعيد إخراج حملة نابليون الفرنسية من مصر في أوائل القرن التاسع عشر ، ومهما قيل في اعتبار هذه الحملة باعثاً من بواعث النهضة العربية الحديثة في مصر بخاصة ، فإن هذا الانفتاح الذي تم بين فرنسا ومصر في أعقابها كان مرتباً عليها وأحد نتائجها . وهذا الانفتاح الذي كانت بعثة الطهطاوي إحدى ثمراته كان يعني أكثر من مجرد تخطي أسوار الجهل التي تخنق البلاد والانتقال من مكان الظل الكثيف إلى تحت الشمس ، كان يعني ورود منابع العلوم الأصيلة في مواردها الأولى في وقت كان حاكم البلاد يحاول إغتراف شيء من هذه المناهل أو حتى بعض قنواتها لمصلحته أو لمصلحة البلاد معه ، فبدأ حركة إحياء وبعث نهضة أراد لها لون تلك المنابع ، وطعم مناهلها . وقد وفرت هذه الظروف لرجل من الصعيد فرصة الإقامة الرسمية في بلد تعد (عرائس الأقطار) .

وعندما نقول أن الطهطاوي هو صاحب هذه الرحلة ، فإنه يجب علينا أن نتنبه إلى أمور عدة اجتمعت في ابن الصعيد هذا ، فهو كما يبدو رجل ذكاء ونشاط ومثابرة ، تميز بروح شرقية صميمة ، وطبيعة خيرة مخلصة عمقتها دراسة الأزهر في نفسه ، وجاء شيخه حسن العطار ، بما عرف عنه من رحابة أفق وحب للعلم والتغيير ليشحذ همته المخلصة ، ويوجه ذكاءه الخصب، ففتح ذهنه وقلبه على علوم الغرب، وشوقه إلى آفاقها الرحبة، فراح بهذه الأخيرة، وبهذه النفس وبهذا الاستعداد والتهيؤ يضم ما يتشربه من ثقافة الغرب إلى نفس إسلامية شرقية واعية، مدفوعاً بحب أهله ووطنه لينقل إليهم ثمار تقدم البشرية على مر الزمان. ومن هنا عكف على محاولة إفادة بلاده من كل ما استحسنه من أمور هذه البلاد وعوائدها على حسب ما تقتضيه الحال. ومن المعلوم أنه لا يستحسن إلا ما لم يخالف الشريعة

المحمدية فأشار إلى ما يعم فرنسا من كمال العدل «فهـو المعمـول عليه في أصول سياساتهم فلا تطول عندهم ولاية ملك جبار أو وزير اشتهر بينهم أنه تعدى مرة وجار»[٢١]. والطهطاوي عندما يتعرض لهذه الموضوعات في مثل هذا الوضوح والصراحة، كما فعل أيضاً عندما تحدث عن ثورة ١٨٣٠م في فرنسا وطرد الملك عن العرش، إنما يقدم نموذجاً فذاً على الجرأة والتفاني في الإصلاح. وهو لم ير شيئاً مفيداً أثناء رحلته إلا وحاول أن يعـرف أهلـه عليه، حتى حب الفرنسيين للعمل، حاول أن يحارب به ما تستمرئه النفس الشرقية عموماً من خمول وتوان، خصوصاً إذا كانت من خاصـة النـاس، فيقـول «اعلـم أن من المركوز في أذهـان هؤلاء الطـوائف محبـة المكسـب والشغف به وصرف الهمّة إليه بالكلية ومدح الهمـة والحـركة وذم الكسـل والتواني حتى أن كلمة التوبيخ المستعملة عندهم على ألسنتهم في الذم هي لفظة الكسل والتنبلة. وسواء في محبة الأشغال العظيم والحقير ولو حصل من ذلك مشقة أو مخاطرة بالنفس»[٢٢]. وإذا تذكرنا أن الطهطاوي كان شيخاً من خريجي وأساتذة الأزهر أدركنا ما يلفت انتباهه من مظاهر الحياة الباريسية التي أراد أن يطعم بها الروح الشرقية مما لا يخالف نص الشريعة المحمدية.
ومن هنا وعلى أساس هذا الفهم شملت رحلته السفر ووقائعه، وغرضـه وثمرته، وإيجازاً للعلوم والصنائع المطلوبة. ولا شك أن لدراسة الطهطاوي الأزهرية، ولاطلاعه على ترتيب المؤلفين القدماء لكتبهم أثراً في توجيهه إلى ترتيب كتابه هذا الترتيب الذي بدا عليه، والذي لا يخفى حتى على المتأمل في فهرسه، وإن مازج تنسيقه ما أشرت إليه من استطرادات ليست في محلها.
ونحن وإن كنا نحمد له هذا التنسيق، فإننا نحمد له أيضاً وقوفه عند بعض

استطرادات ليست في محلها. ونحن وإن كنا نحمد له هذا التنسيق، فإننا نحمد له أيضاً وقوفه عند بعض الأمور دون أخذها مأخذ التصديق، كما فعل فيما ورد على لسان عمرو بن العاص بأن في الإسكندرية آلاف الحمامات

والقصـور والميادين والبقالـين ، فقـال في ذلك «لعلـه من مبالغـات المؤرخين» ، وفيما ورد عن القزويني في كتابه (عجائب المخلوقات) حيث قال بأن النخيل لا ينبت إلا في بلاد الإسلام ، فقال بأنه وجد عند كشف أمريكا بها غير منقول كما هو الظاهر من بلادنا ـ . وإذا كنا نحمد له ذلك ، فإننا نأخذ عليه ذكره حرق عمرو بن العاص لمكتبة الإسكندرية دون محاولة تحقيق هذا الخبر ، لا سيما ولبعض المؤرخين رأي فيه ، وكذلك ما أخذه عليه دي ساسي من أنه ربما حكم على سائر أهل فرنسا بما لا يحكم به إلا على أهل باريس والمدن الكبيرة ، وإن كان ذلك ، كما فسر له دي ساسي نفسه ، نتيجة متولدة ضرورة من حالته التي هو عليها ، حيث لم يطلع على غير باريس وبعض المدن الأخرى[٢٣] .

الهوامش :

(١) انظر تخليص الابريز في تلخيص باريز : ٤
(٢) م.ن : ٣٤
(٣) م.ن : ١٠٤
(٤) لمزيد من الإطلاع ، انظر كتاب التخليص : ٦٠ ـ ٦٤
(٥) م.ن : ٦٦ ـ ٦٧ ، ١٠٦ ـ ١٠٧
(٦) م.ن : ٥٢ ـ ٥٣
(٧) م.ن : ٨١
(٨) م.ن : ٩٠ ، ٩٤
(٩) م.ن : ١١٧
(١٠) م.ن : ١٥٢ ـ ١٥٣
(١١) م.ن : ٥٥
(١٢) م.ن : ١٤٨
(١٣) م.ن : ١٠٩ ـ ١١١
(١٤) م.ن : ١١٢ ـ ١١٣
(١٥) م.ن : ٤
(١٦) م.ن : ٢١ ـ ٢٢ يبدو أنه يقصد بالجزائر البحرية (جزر أندونيسيا) .
(١٧) م.ن : ٥
(١٨) م.ن : ٢٤٦
(١٩) م.ن : ١٧٤ ـ ١٧٦
(٢٠) م.ن : ١٩٢
(٢١) م.ن : ١٤٧
(٢٢) م.ن : ١٤٣
(٢٣) م.ن : ١٨٠

٥ ـ رحلة الشدياق إلى مالطة وبريطانيا وفرنسا

أتيحت الفرصة لأحمد فارس الشدياق أن يسافر إلى جزيرة مالطة وإلى فرنسا وبريطانيا ، وقد أقام في الأولى مدة أربعة عشر عاماً ، وقضى أكثر من تسع سنوات في باريس ولندن ، فوضع في رحلته الأولى « الواسطة في معرفة أحوال مالطة » وفي سياحاته الثانية كتاب « كشف المخبا عن فنون أوربا» . وهو وإن كان دون بعض أخبار رحلتيه هاتين في كتابه «الساق على الساق فيما هو الفارياق» الذي قصد به أصلاً الترجمة لنفسه ، فإننا سوف نقصر دراستنا هنا على كتابيه المخصصين للرحلة فقط ، وقبل مباشرة الحديث في هاتين الرحلتين نود أن نشير إلى ولوع صاحبهما بالأسفار ودوافعه إلى ذلك وما يراه من فوائد الرحلة . ويبدو أن الشدياق قد ورث بذرة هذا الولوع من الأمجاد اللبنانية العريقة في هذا المضمار ، فيحدثنا عن فترة شبابه قائلاً « هذا وقد كنت في عنفوان شبابي وجدة جلبابي ، وأزهار سني ، وازدهار ذهني ، لهجاً بالسفر والإغتراب ، والترحل عن الوطن والصحاب ، إلى بلد ينضر فيه غرسي ، وتطيب فيه نفسي ، وأقتبس فيه من مصابيح العلم قبساً . . »[1] ونستطيع أن نستشف رأيه في الترحل والأسفار من خلال قوله « . . فإن الأسفار طالما ذكرها الذاكرون ، وبالغ في وصفها الواصفون ، فمدحها من علت مروءته وسمت همته ، وذمها من قصر عنها ، ولم يجن منها ، فمنهم من شبه صاحبها بُدرٍّ إن لم ينقل لم يكن في

التيجان منضوداً ، وبهلال إن لم يسر لم يصـر بدراً مشهـوداً . . »[٢] .

ويرى الشدياق أن الرحلة والأسفار يكسبان صاحبهما خبرة وتجارب لا يتأتى له تحصيلها وهو قعيد بيته أو بلـده أو بمجرد سماعـه لأحـاديث النـاس وأخبارهم التي كثيراً ما يلعب التشويه فيها حتى تضيع الحقائق ، ومن ذلك ما يذكره من تخويف الناس له من السفر إلى بلاد الإنكليز « التي لا تطلع عليها شمس ، ولا ينبت في أرضها قمح أو بقول ، ولا يوجد فيها من المآكل إلا اللحم والقلقاس ، ومن تخويفهم له أيضاً من أن يفقد رئته لفقدان الهواء أو أمعاءه لعدم الأكل . . »[٣] ولكن سفره إليها أثبت له أن الشمس فيهـا شمس والهواء هواء ، والرجال رجال ، وأن الحياة فيها كالحياة في غيرها من البلاد مع الفوارق الطبيعية . ومن هنا كان ينصح القادر على السفر ليرى ويسمع ويخبر ما في البلاد الأخرى من عادات وتقاليد وأطوار وأحـوال ، كأنه يتمثل بقول أبي تمام حاثاً على الرحلة :

وطـول مقـام المرء في الحيِّ مخلق لديبـاجتيه ، فاغتـرب تتجدد
فإني رأيت الشمس زيدت محبة إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

والشدياق لا ينشد فوائد الرحلة من علم وخبرة للرحالة وحسب ، وإنما يريد أن تعود فوائدها إلى قومه كذلك ، بنقل كل مفيد يعين على تقدمهم من تلك البلاد التي زارها ، وبمقابلة ما رآه بما في بلده من نظائر وأشباه ، ولذا فهو يحث من يرحل عن وطنه على تأليف في رحلته يشهره بين بنـي قومـه لينتفعوا به من دون أن يقصد التكسب[٤] . ويبدو أن هذا الهدف ، هدف إفادة بني قومه على ما اطلع عليه ، كان دافعه إلى تأليف كتابيه في رحلتيه ، ودليلنا على ذلك ما سنشير إليه من كتابتـه في بعض الموضوعـات ، ومـن طريقته في كتابتها ، ثم هو يشير إلى ذلك صراحة إذ يقـول ، في بواعـث كتابته (كشف المخبا . .) ، وكان قد حمله شعـوره بالعجـز عن شمـول

أحوال البلاد وتقدمهم على الإضراب عن التأليف، «إلا أن رغبتي في حب (كذا) إخواني على الإقتداء بتلك المفاخر هي التي سهلت عليَّ هذا وأطالت باعي القاصر»[٥]. ويحكمه هذا الهدف فينحو به في كتابته مناحي في خدمته ، فتراه يبرر تقديمه الفصل الخاص بالحديث عن سوء مناخ مالطة وهوائها وشتائها وصيفها وإمكان فساد الأطعمة فيها ، كأنه ينصح بعدم الإقامة فيها ، بله السفر إليه إذ يقول « إنما قدمت هذا الفصل من كلامي لأهميته ، فإن العافية خير ما ملك الإنسان ، وإن أرضاً لتأكل من نازلها الجديرة بأن لا يؤكل منها . . »[٦] وغير هذا كثير كنصحه للمسافرين ما خبره في كيفية التهرب من رجال الجمارك وخداعهم وتضليلهم[٧].

هذا ، وإذا كان الهدف من تأليفه كتابيه في الرحلتين ، ما ذكرناه أو شيئاً منه ، فإن دواعي الرحلتين كانت مختلفة أصلاً ، فرحلة مالطة جاءت بدعوة الأميركان له في عام ١٨٣٤ للتعليم في مدارسهم في الجزيرة ولتصحيح ما يصدر من مطبعتهم فيها من كتب عربية ، وكان يومئذ مقيماً في مصر ، ورحلته الثانية جاءت بدعوة من جمعية « ترجمة الأسفار المقدسة » إلى إنكلترا ليسهم في ترجمة التوراة إلى العربية تحت إشراف المستشرق (الدكتور لي) ، وكانت هذه الدعوة سنة ١٨٤٨ م .

وخلال إقامته في مالطة خبر الجزيرة والحياة فيها عن كثب ، فوصفها من الناحية التاريخية والجغرافية والمدنية وتكلم على عادات أهلها وأخلاقهم ولغاتهم وعلى حكم الإنكليز فيها . ولكنه رأى هذا الشرح (ويقع في ٦٦ صفحة) « لا يروي غليلاً ، ولا يشفي عليلاً ، لكونه مقصوراً على وصف الجزيرة ، وهي من الصغر بحيث لا تمكن الواصف من أن يطيل فيها من القول مأثوره ، أو يضيف إليه فوائد تاريخية خطيرة »[٨]، « فظل خاطره حائماً على مورد التأليف ، وقلبه هائماً بسفر طريف ، إلى أن مكنته التقادير الممكنة بعد لبثه على تلك (الصخرة الدرنة) نحو أربع عشرة سنة ، من

السفر إلى بلاد الإنكليز المتمدنة ، فاغتنم هذه الفرصة عجلاً ، وظن أنه أدرك أملاً ، وعول على أن يشفع برحلة تأليف الواسطة يعظم وقعها ويعم نفعها ، فصار يقيد ما عن له من الخواطر في وصفهم . . »[٩] . وبلغ من حرصه على تأليف رحلته إلى بلاد الإنكليز أنه كتبه من خلال الضجيج والزحام ومجتمع الضجة في لندرة (لندن) ، وفي صعوبة هذا العمل يقول « . . وما أظن أحداً من سكانها يمكنه أن يعمل فكره في شيء إلا فيما هو بين يديه من الشغل . وفي هذا المورد الوخيم قدر الله لي أن أؤلف هذا الكتاب لا في مروج إيطاليا النضيرة ، ولا في رياض الشام الأنيقة ، فأخال أن بين كل كلمتين منه دخاناً متصاعداً وظلاماً متكاثفاً »[١٠] .

وفي كتابه (الواسطة) ، يبدو أن الشدياق حاول أن لا يترك شاردة ولا واردة في مالطة دون أن يضمنها صفحاته القليلة ، فجاء الكتاب طافحاً بأحوال الجزيرة وبعادات أهلها ومظاهر حياتهم ، فبحث في تاريخها وحقق في موقعها بين تبعيتها لأفريقيا أو لأوربا وفي اشتقاق إسمها ، وتحدث عن هوائها وجوها في الشتاء وفي الصيف ، ومن ذلك يقول « . . وإذا مشى الإنسان خطوات في الصيف يعوم في عرقه ، ثم لا يلبث أن تلفحه لفحة من الريح ، فينبغي أن يكون أحذر من غراب »[١١] . وهو يدعوها (مخزن الرياح) ، ويقول في شتائها ورياحه وفي تتابع فصلي الشتاء والصيف وهجومهما بغتة « . . إذ الرياح تأخذ بناصية السائر والمياه تهطل من أنف كل سحاب ، والزكام ملازم للأنوف والسعال قابض على الحلقوم . . فآخر ذنب الشتاء معقود بناصية الصيف »[١٢] . وقد تكلم كثيراً وبالتفصيل على عادات أهلها وتقاليدهم في البيوت وفي الأسواق وفي الزواج والأعياد وفي غيرذلك ، ووصفهم بالشراهة في المآدب والبخل بالدعوات ، وفي ذلك قال شعراً :

«لئـام إذا ما زرتهـم في بيوتهم كرام إذا زاروك ما أمكن اللحس
ولو وسعت أفواههم غـير ما بها لـكان لكل بـين أنيابـه فأس[١٣]

ومرة أخرى يصف بخلهم في بيوتهم فيقول :

«إذا زرت أرحبهم دارة توهـم غولاً قد إغتالها
يغلـق أبوابـه إن نوى فطـوراً، ويحكم إقفالها»[١٤]

وكما تحدث عن بخل أهل مالطة تحدث عن كثرة الشحـاذين فيهـا وإلحافهم بالسؤال فإذا « أعطيت أحدهم مرة فكأنما قد دون ذلك عليك في الدستور فأينما يرك يلزمك . . »[١٥] وفي كلامه على البيوت التي تؤجر فيها أشار إلى مواصفاتها وما ينقصها في العادة وإلى شروط التأجير ، وقارن بين بيوتها والبيوت في مصر والشام ، وقال في بيته فيها وقد كثرت فيه العناكب :

«غدا بيتي كثـير الفرش لما تهلهـل فيه نسـج العنكبوت
فلا عجب !!! ما قلت يوماً لـكيد النـاس إنـي ذو بيوت»[١٦]

وهو لم يكتف بوصف أهلها الأصليين فقط ، وإنما تكلم على الإنكليز فيها وعلى حكومتهم ودخلها ومصروفاتهـا ، ونقـد شرائعهـم وجمودهـا ، وفضل نساءنا على نسائهم ، وأشار إلى تكبرهم وشحهم ، وعدم إعجاب إلا القليل من الأجانـب بمالطـة لأن « كل ما فيهـا إن هو إلا نفـاية ما عندهم »[١٧] . وعلى الجملة فإنه لم يتـرك شيئـاً دون أن يتكلـم عليه وإن أحوجه إلى بعض الكتب والمراجع والتحقيق ، ففي لغتها ، وهي أخلاط من العربية والإيطالية يقول شعراً :

تبـاً لهـا! لغـة بغير قراءة وكتابـة، عـين بلا إنسان
تتبلبـل الألباب في تركيبها ويكل عنهـا حد كل لسان
أذنابهـا ورؤوسها عربية فسدت، وأوسطها من الطلياني[١٨]

ويقارن بين مائها وبين ماء النيل الذي يطيب شربه على التعب والظمأ ،

أما ماؤها فهو غير سائغ ، « فما شربه ذو تعب أو ظمأ إلا وأصابه سعال ، وكثيراً ما يحدث من شربة واحدة نفث الدم . . فلا ينبغي لأحد أن يشرب من ماء مالطة إلا ترشفاً »(١٩) . وفي نهاية المطاف يخرج من هذه الجزيرة غير مودع لها ، ولا آسف على فراقها ، وناسياً حياة أربعة عشر عاماً فيها ، إذ يقول في مقدمة كتابه (كشف المخبا . .) « . . سافرنا من مالطة إلى إنكلترا ، وبعد نحو ساعتين غابت عنا أرضها ولكن لم أقل كما قال الشريف الرضي :

على اي حال لليالى أعاتب | وأي صروف للزمان أغالب
كفى حزناً إني على القرب نازح | وإني على دعوى شهودي غائب
وتلّفَتتْ عيني فمُذْ خَفِيَتْ | عني الطلول تلفّتَ القلب(٢٠)

وكما درس في كتابه (الواسطة) أحوال مالطة بهذا التفصيل فقد درس الحياة في بلاد الإنكليز وفرنسا وفي لندن وباريس بخاصة وقارن بين بعض نواحي الحياة في كل منها من جهة ، وبينها وبين بعض نواحيها في مصر والشام من جهة أخرى . وأتاحت الفترة الطويلة التي عاشها الشدياق في لندن وباريس ، وقد نيفت على التسع سنوات ، زار لندن خلالها عشرين مرة ونال فيها الجنسية البريطانية ، أتاحت له فرصة الإطلاع والوقوف على دقائق الحياة الأسرية والعلاقات الإجتماعية في هذا المجتمع الأجنبي خاصة وقد ساعده كونه مسيحياً حتى ذلك الوقت على الإندماج في حياتهم . وتمكن بما تمتع به من ذكاء وقوة انتباه وملاحظة أن ينسخ صورة هذه الحياة نسخاً يكاد يماثل تمام المماثلة حياة البلدين حتى في كثير من دقائق التفصيلات فيها . وفي الحقيقة ، لم يكن الشدياق مجرد مصور لهذه الحياة وإنما أضفى كثيراً من الحيوية والحركة على صوره هذه بما بثه فيها من نبض التحليل الفكه ، والمقارنة الواعية في كثير من الأحيان . لقد تناول كل صغيرة وكبيرة في حياة هذا المجتمع فتحدث عن معالم المدينة وأشهر مبانيها ودوائرها ،

وهو حينما يتحدث عن إحداها يستقصي ذلك في أدق التفصيلات ، فإذا ما تحدث عن مبنى البريد مثلاً سجل نقلاً عن بعض مراجعه عدد مستخدميه ومصروفاته ، حتى وعدد ما ينقله من رسائل في السنة . وإذا ما تحدث عن المسرح هناك عرج على تاريخه وعاد إلى أسواقنا القديمة في عكاظ وتمنى لو أنها تطورت ونقل العرب عن اليونان ما يصل بها إلى المسرح المعروف . وكذلك إذا تناول حديثه صناعة النسج في منشستر راح يغوص وراء آلات الغزل وتاريخ اختراعها . ومثل ذلك حديثه عن الصحف فإنه يجره إلى تاريخ الصحافة وصناعة الورق والمطبعة وأهمية اختراع الطباعة ، ولا ينسى أن يتحدث عن إيراد المملكة وميزانيتها ووصف ضنك الفلاحين في قرى بريطانيا ، والفقر المذل في لندرة (لندن) يومها حيث « تتيه الكلاب على كثير من بني آدم ممن يتضورون جوعاً ويهلكون من الوسخ والبرد والعري ومن أكل اللحوم المنتنة في أزقة لندرة القذرة » وحيث تسكن عشرات الأسر رجالاً ونساء في حجرات قليلة ، وحيث البطالة للآلاف من الناس . « والحاصل أنه لا فقير أشقى من فقير لندرة كما أنه لا غني أترف من غنيها »(٢١) . وهو لا ينسى أن يشير إلى فروق أسعار الحاجيات في لندرة أثناء الأوقات المختلفة التي زارها فيها ، وكيف أنها تضاعفت عما كانت عليه أيام زيارته الأولى . وتناول في كتابه شرطة لندرة ومهماتهم ، وقال إنهم أنفع طائفة للمدينة وللناس ، وفضلهم على شرطة باريس ، وكذلك تحدث عن جمعياتها الخيرية ومدارسها حتى وعن لباس أولاد هذه المدارس . وأجبرته رداءة الطعام في مطاعم لندرة على فضح ما يتصف به أصحابها من غش لكل ما يؤكل أو يشرب ، فالخبز يخلط بالبطاطس والشب والجبس . والنقانق (السجق) حشو الحوايا والمصارين باللحم المنتن . وفسر إكثارهم من الفلفل والأبازير في الطعام لإخفاء الغش فيه بحرق اللسان . وكذلك فإن مقاهيهم « مجتمع الأرذال ، فترى فيها واحداً راقداً وآخر سكران وآخر

وسخاً ، وإذا طلبت فنجان قهوة خلطوا القهوة بالحليب والسكر في محل لا تراه وقدموه لك هكذا ، فلا تدري ما وضع فيه »[٢٢]، وبروحه الفكهية أعلن نقمته بقوله « فلعمر الله إن كان هذا الغش نتيجة التمدن والرقي في العلوم فالجهل خير ، فإن أهل بلادنا والحمد لله على جهلهم ما يعرفون شيئاً من هذه الفنون الكيماوية والأخلاط الغير المتناهية التي توجب على الشاري أن يستصحب معه مرآة من المرايا المكبرة ليرى بها تلك الأجزاء أو المركبات فيما يؤكل أو يشرب في وطنكم هذا السعيد . . فإن الكلاب والسنانير تأبى أكل هذه الجباجب التي تحشونها بلحومهن . . »[٢٣]. وهكذا يمضي في ذكر بعض عاداتهم الغريبة في الطعام فهم يشربون الحليب مع الفلفل والملح ، والقهوة مع الفجل والرشاد[٢٤]، ويستفون الدقيق مع السكر ، ومن غرائبهم المستقبحة أكلهم الدم مخلوطاً بالشحم ، وأكلهم اللحم المنتن ، إذ لا يأكلون الأرنب والغزال إلا خنقاً وبعد خنقه بثلاثين يوماً ، وكذلك الطيور والفراخ بعد خنقها بأيام . ويذكر عاداتهم في الدعوة إلى المآدب البيتية ، ويبين أنها ضرب من الأسر لتحكم بعض العادات التي تقيد الضيف فيها وتحد حريته حتى في أصناف الطعام التي يأكلها . وفي تفكهة محببة يروي لنا دعوته إلى شرب الشاي يوماً ، يقول « وقد أدبني أو أدب طربوشي أحد الوجود في كمبريج إلى أن أشرب الشاي معه فقال هل لك في أن تشرب الشاي معنا في إحدى الليالي ولكن بعد ثلاثة أسابيع ، قلت نعم ، حتى إذا سرت إليه لم أجد على المائدة غير الصنف المعتاد منه مع أني كنت أظن أن توقيت تلك المدة إنما كانت لجلبه من بعض البلاد »[٢٥]. ولربما كان في هذا التوقيت نوع من الكلفة والمجاملة الشديدة التي تحكم المجتمع الإنكليزي ، وقد أشار هو نفسه بحكم اتصاله بكثير من الأسر الإنكليزية ومشاركتها الحياة إلى ذلك حينما أشار إلى ما يقوم حتى في علاقة الأزواج من كلفة ومجاملة . وفي الحقيقة ، فقد لا يكون الشدياق ترك شيئاً من مظاهر

الحياة الإنكليزية في أيامه إلا وسجله أو نسخه عن الطبيعة إلى أوراق كتابه كما كان ينسخ الكتب ويفليها أيام كان يعمل في النسخ ومراجعة المطبوعات ، حتى تربية الأطفال لدى الإنكليز لم ينس أن يشير إلى غسلهم بالماء البارد أو الفاتر وإلى عدم تقميطهم خوف منعهم من الحركة ، ويقارن تربيتهم في الغرب مع تربية أمثالهم في الشرق حيث يزرع خوف الحكام ورجال الدين والعفاريت والأرواح الشريرة والظلام والأشباح في قلوبهم فيكون أثر ذلك فيهم كلوافح الرياح العاصفة على الغرس ، ولا ينسى أن يشير كذلك إلى بعض اعتقادات القوم في الطيرة والتفاؤل ، فينقل أنهم يتطيرون من لقاء المرأة الحولاء ما لم تبادر بالكلام فحينئذ تزول الطيرة ، ومن السفر في يوم الجمعة . وهم يتفاءلون برمي نعلين باليتين خلف من يخرج من المنزل لمصلحة يرومها ، فإن في ذلك فألاً بنجاحه وتوفيقه ، وكذلك فيما لو قلب أحد وعاء الملح على المائدة ، مع أن قلبه عند العرب كناية عن الغدر والخيانة وحفظه كناية عن حفظ حقوق المودة والعشرة وقسمهم بذلك لتعظيمه[٢٦] . ومن الطريف حقاً أن يتنبه الشدياق فيتعمق ظاهرة خاصة تتعلق ببرد إنكلترا والشعور تجاه النار فيها حيث توقد لمجرد الإرتياح لرؤيتها وفي ذلك يقول « وفي الحقيقة فإنه عند شدة البرد هنا لا يفكر الإنسان إلا في الإصطلاء ولا تزال تسمع من كل من تلقاه لفظة البرد وإذا تفوه بها فرك يديه وتأفف ليدل على صدق ما يقول ولا سيما النساء حتى إنهم ربما قالوا ذلك في يوم لا برد فيه فكأن ألسنتهم مرنت على ذلك . . وفي الجملة فإن النار أليفهم مدة ثمانية أشهر في السنة وبهذا تعلم أنهم لا يرون وصف الجنة نعيماً لأن الإنسان إذا كان مقروراً لا يشتهي أن يسمع ذكر المياه والظلال والأشجار بل كانوا يقولون تلك الجنة نيرانها مضطرمة ، ومواقدها محتدمة ، وحضبها معتد ، وحطبها منضد وفحمها مؤبد ، ومسعرها مخلد ، فهنيئاً للمصطلين ، وطوبى للمستدفئين »[٢٧] . وهكذا فإنه لهذه المكانة التي

تحتلها النار بالنسبة إليهم كان لها آداب كما للمجالس آداب بين أصحابها ، فالنار في البيت لا يحركها إلا من كان من أهل البيت أو من طالت إلفته بهم . وهو في كلامه على نار الإنكليز يفوق الطهطاوي في حديثه عن نار الفرنسيين . ومن متعلقات النار عند الإنكليز ، مكانة الشاي لدى الأسرة الإنكليزية ، فلا شيء « أقر لعين صاحبة العيلة من الإنكليز من أن تشرب الشاي مع أولادها بقرب الموقد ولا سيما إذا كانت مغلاة الماء تغلي ويسمع لها نشيش والبخار صاعد من بلبلتها ، وهذا هو أوفر الهناء الذي يعبرون عنه بلفظة كمفورت »[٢٨] . وهكذا يطيل الشدياق في تصوير الحياة الإنكليزية وتنظيم الزيارات الأسرية ، مدلياً بملاحظات قيمة توصل إليها من خلال إقامته الطويلة بين الإنكليز وحياته مع أسرهم.

ويشير إلى أن شرع الإنكليز « أطول الشرائع أحكاماً وأكثرها قيلاً وقالاً ، وأوسع من علم العربية قلباً وإعلالاً»[٢٩] . وبالنسبة لمعارفه اللغوية العربية فإنه لا يرى بأساً من إيراد مجادلاته اللغوية الطويلة مع (الدكتور لي) المشرف على طبع التوراة ويعمل معه في ذلك . ومن ملاهي لندرة لا يفوته أن ينقل إلينا « أن الرقص في هذه الملاهي مخالف للرقص المعهود في المراقص ، فإنه هنا أكثر خفة وصنعة وموازنة ، فقد ترقص المرأة على رؤوس أصابعها عدة دقائق وتمشي كذلك القهقرى وقد تتخلع وتتفكك تخلع الراقصات في بلادنا تقريباً بحيث لا يبدين شيئاً مخلاً بالحياء إلا أنه كثيراً ما يرفعن سيقانهن في وجوه الناس ، وحين يدرن دوراً متتابعاً يرى الرائي أفخاذهن المستترة تشف من الخز ، ومع ذلك فلا يعد هذا مخلاً بالحياء »[٣٠] .

هذا بالنسبة لبلاد الإنكليز ولندرة عاصمتها ، أما بالنسبة لباريس ، وقد كان مجموع إقامته فيها ثلاثين شهراً يبدو أنه قضاها متقطعة فيها ولم يزر

قراها وريفها بعكس حاله في إنكلترا ، فقد كان (الدكتور لي) مقيماً في قرية من القرى ، وطاف الشدياق لذلك في بعض أنحاء الريف الإنـكليزي .
وكان الشدياق قد مر بباريس في طريقه إلى لندن في أول زيارة له ، ولكنه لا يفصل في أحوالها إلا بعد عودته إليها من لندن ، وذلك طبيعي لعدم إقامته فيها مدة طويلة . وبرغم ما سجله في حياتها فإنه لم يطل إطالته في حياة لندن لاعتقاده كما يصرح بنفسه أن في رحلة صديقه الطهطاوي إليها وفيما كتبه عنها وعن حياة أهلها ما يكفي لتعريف العرب بها . ومع ذلك فهو لا يبخل علينا ، جرياً على منهجه الذي اتبعه في رحلته إلى بلاد الإنكليز ، في وصف باريس وأحوال أهلها وإن لم يسهب بنفس المقدار . ونستطيع أن نستشف انطباعه عنها لمعرفته السابقة بها في قوله « . . ثم تأهبت للسفر إلى باريس وأعـددت خيشومـي للغنـة ، وخلـدي للفتنـة ، ودريهماتـي للمحنة »[٣١] . ومع وعوده بعدم الإطالة وبإخلاء هذه الرحلة في الجملة من الإستطرادات ، فإنه لا ينجو من ذلك إلا قليلاً في الموضوعات التي عرض لها فيها . وعلى أية حال ، فهو يبدأ في وصف باريس منذ وطئت قدماه أرضها ليلاً وحيث لا يزال هواؤهـا في رئتيه ، ووحلهـا على نهليه فيقـول « . . فبلغنا باريس ليلاً فدهشت لما رأيت ، فإني وجدت جميع الحـوانيت مفتوحة في الساعة التي لا يفتح فيها شيء في لندرة غير حانات المزر ، وحين مررنا بالبلغار رأينا من الأنوار في الديار من فوق وفي محال القهوة من تحتها وفي فوانيس الطرق من بين الأشجار وفي فوانيس العواجـل الواقفـة عن اليمين والشمال ما خيل لي أني في جنات النعيم ، فقلت في نفسي بخ بخ إن هذه مدينة بهجة وأنوار تتفتح فيها أكمام المعاني في رياض الأفكار ، وتتجلى بها عرائس القصائد في إخدار الأشعار فلأجعلن دأبـي النظم فيهـا الليل والنهار . . »[٣٢] . ويبدأ بعد ذلك بلمحة في تاريخ باريس مشيراً إلى أيام كانت بلدة صغيرة مفتوحة على الطبيعة وتوحشها ، فكانت الذئاب تدخل

أسواقها وتغتال من تغتال ، ثم يذكر في جملة ما يذكر عجائب هذه المدينة وأماكنها المشهورة من كنائس وقصور ومستشفيات وبنوك وحدائق . يقول في حديقة القصر الأمبراطوري « فإذا لم تقصد هذه الحديقة لتسرح ناظرك في محاسنها فذلك دليل على فساد مزاجك »[٣٣] دون أن يبين أثر محاسنها في نفسه . ويتناول بعد ذلك أعياد الفرنسيين وأخلاقهم وعادات نسائهم ، ويشير إلى تفوقهم في الصناعات على الإنكليز . ويجلب انتباهه عمل محترفات التنويم في باريس ، ومقاومة القسيسين والأطباء لهن ، لمخالفة عملهن للدين والطب.ومن ناحيته فإنه يحتار في أمرهن ، فمرة يصدق خصوصاً وهو يرى صدقهن أحياناً ، ومرة أخرى يستغرب ، كما سنشير إلى ذلك عند الكلام على خصائص هذه الرحلة . ومن الموضوعات التي شدت إنتباه الشدياق فأولاها اهتمامه ، نساء باريس ، فراح يحدث عن أزيائهن ونظافتهن وعنايتهن بتربية أولادهن عناية كبيرة ، وأشار إلى بعض عاداتهن في البيوت إذ قال « ولهن كذلك عناية بليغة بتنضيد أثاث البيت ، وبهن تليق جميع الأعمال . وفي الواقع فإنهن أزكن وألقن من سائر نساء الإفرنج ، وما من إمرأة في باريس إلا وتعرف شيئاً من المداواة ، وطبعهن التبكير في القيام وتنظيف مراقدهن بخلاف نساء لندرة ، فإن الغالب عليهن الكسل والتواني ، والإضحاء في النوم »[٣٤]، وكان قد أشار إلى جمال نساء لندرة وحيرته في جمالهن فقال « . . فإذا رأيت واحدة منهن جزمت بأنها أجمل من رأيت ، ثم ترى أخرى فتجزم بأنها أجمل من تلك وهلـمّ جرّا». والشدياق مولع بالمفاضلة وبمقارنة النظائر والأضداد من كل ما رأى في بلاده أو في بلاد زارها ، مالطة أو باريس أو لندن أو غيرها . وفي محاولة منه للتعريف بنمط الحياة في كل من باريس ولندن يقارن بينهما كما يأتي « إن أهل الإستطاعة في لندرة كالتجار وغيرهم يستأجرون بيوتاً ويستقلون بها وذلك لصغرها خلافاً لديار باريس فلهذا كان صاحب العيلة يؤثر التنعم في بيته مع أهله على

الخروج . أما الغرباء الذين ينزلون في الديار فيكون لأحدهم حجرة أو حجرتان فيمكنهم أن ينالوا طعامهم صبحاً ومساء في منزلهم وذلك بأن يشتروا هم ما يريدون أكله ويأمروا الخادمة بطبخه ويعطوها شيئاً زهيداً في مقابلة خدمتها وذلك أولى من أنهم يأكلون في المطاعم بل هو أنظف وأرخص وفي هذه الخطة تفضل لندرة باريس فإن الغرباء في هذه لا ينزلون إلا في منازل كبيرة مشاعة فيضطرون وقت الأكل إلى الخروج إلى أحد المطاعم فإن الأكل في المنازل غال جداً وهناك مزية أخرى وهي أن النزيل في لندرة يستأجر الحجرة في الأسبوع وفي باريس يستأجرها مشاهرة وإن كان مياومة لزم أن يدفع الضعف ضعفين وأيضاً فإن صاحب الدار في لندرة يعطي النزيل مفتاح داره ليمكنه أن يدخل ويخرج أيان شاء وفي باريس لا بد من قرع الباب بعد نصف الليل ليفتح له البواب غير أن النزيل في ديار لندرة لا يمكنه أن يخلو بالنساء في حجرته وفي باريس لا حرج في ذلك فإن طلوع المرأة إلى حجرة النزيل فيها أهون من طلوع الخبز كما أن طلوع المرأة في لندرة إليه أصعب من طلوع الفرن بناره وهذا شذوذ عن الأصل المتقدم إن قلنا بأنه من طيب العيش إلا أنه أكثر المنازل هنا يقوم بخدمتها نساء حسان يغنين النزيل عن الخروج ولأصحاب هذه المنازل غالباً عادة ذميمة وهي أنهم يستدلون على مفاتيح عديدة متنوعة يفتحون بها صناديق السكان حتى إذا علموا أن ليس في صناديقهم ما يقوم بأجرة المسكن أنذروهم الخروج . وهناك طريقة أخرى للسكنى في كلتا المدينتين هي إن من شاء أن يمكث طويلاً يستأجر حجرة أو حجرتين في دار من غير أثاث ويؤثثها كما أحب ولكن يلزمه في لندرة أن يفتح الباب لقاصده وينور له في الدرج وفي باريس لا يلزمه ذلك هذا ولما كان أرباب الحكومة في لندرة لا يعنون بما فيه تحسين المدن وتنظيم ديارها كانت ديار لندرة بالنسبة إلى ديار باريس حقيرة جداً إذ كل إنسان يبني داره كما تقتضيه حاله فمنها ما كان مشتملاً على طبقتين فقط

ومنها على ثلاث طبقات من دون مراعاة رونقها وهندمتها ومساواتها أو يقال إن الديار هنا لما كانت عرضة للحريق كان هم صاحب الملك مجرد الإنتفاع بالبناء دون الزخرفة »[٣٥] . وعلى الجملة فهو يفضل الحياة في باريس على الحياة في لندرة لكثرة الحوادث فيها ، وفي مفاضلته بين الإنكليز والفرنسيين عموماً ينصب من نفسه حكماً دقيق النظر ، فيستعير من حكم ناقد أدبي قديم عند العرب نمطاً في الحكم يقوم على التصنيف والموازنة على أساس المستوى ، على غرار ما قال الآمدي في موازنته بين أبي تمام والبحتري ، فيقول « . . إن الجيد من الإنكليز خير من الجيد من الفرنسيس والرديء من هؤلاء خير من الرديء من أولئك ، ومآل الكلام أن عامة الفرنسيس أفضل ، وإن خاصة الإنكليز أجل وأمثل »[٣٦] .

ويظهر أن الناحية الإجتماعية قد استغرقت إهتمام الشدياق ووقته ، أكثر من أي شيء آخر ، فكانت إشارته إلى ناحية الحياة العلمية لدى الأوروبيين قليلة ، ومن ذلك قوله في مفهوم العلم ومكانته عندهم « إن من برع عندهم وإن كان وضيع النسب فلا يعدم أن يرى من يرفعه من خموله ويستفيد بعلمه ، غير أن العلم عندهم لا يكون بمعرفة قواعد النحو والصرف أو بنظم قصائد ، وإنما هو مطالعة اللغتين اليونانية واللاتينية ومعرفة أدبهما ومعرفة التاريخ والفلسفة والهندسة والرياضيات ، فمن حصل ذلك فقد قبض على مفتاح الرزق ومن اخترع شيئاً مفيداً فقد استغنى به وذلك إما أن يبيعه لأحد من الأغنياء بجعل وافر ، وإما أن يستبد بصنعه ، فلذلك كان العلم في أوربا دائماً مورد الإستنباط والإبتكار ، بل كثيرون منهم يحرزون به لقب الشرف[٣٧] .

خصائص الرحلة وأسلوبها :

من العرض السابق لرحلة الشدياق نلاحظ أن أول ما يتسم به أسلوبه

ومنهجه في سوق أخبار رحلته هو الإستطراد ، فما أن يذكر موضوعاً من الموضوعات حتى تراه يندفع وراءه يشبعه بحثاً وملاحقة حتى أعمق جذوره وأدق متعلقاته . وهذا بلا شك ، بعض نتائج ثقافة رحالتنا الرحبة ومعارفه الواسعة . . فقد كان طلعة كثير القراءات . وهو يملك دون ريب بعض المصادر التي يلاحق فيها أصول موضوعه ، ويتثبت من تاريخه ويحرص دائماً على إمداد القارىء بأكبر قدر من المعارف . ويكفيه في هذا المجال إشارة بسيطة حتى يسزل قلمه ولا يكتفي إلا بورود منابع موضوعه ، فلا يذكر إكثار الإنكليز من شرب الشاي مثلاً حتى تراه ينحرف في حديثه إلى جلبه وأثمانه ومقدار ما يصرف منه . وكذلك لا يزور مبنى التلغراف في كمبريج ويورد الحديث عن هذه الزيارة حتى يغرق في الحديث عن تاريخ صناعة التلغراف ويعرض لسيرة حياة فرانكلين الأميريكي بهذه المناسبة . ومن هذا القبيل أيضاً الفصل الخاص الذي عقده « فائدة في عمر الحيوان » ، حول أعمار الحيوانات طولاً وقصراً ، بمناسبة حديثه عن حيوانات الإنكليز . وشبيه بذلك حديثه عن المسرح الإنكليزي وتاريخه عند اليونان وكذلك عن طريقة التنوير بالغاز وتاريخه ، وكيفيته ، ويقارن في ذلك بين ما هو متبع في لندن وما هو متبع في باريس ، يقول « . . وكيفية تنوير الطرق في لندرة هو أن يرتقي الرجل في سلم إلى الفانوس ، وفي باريس يجعل الرجل النور في عود طويل ثم يدنيه من فوهة الفانوس من دون أن يرتقي إليه . ولا يخفى أن ذلك أسهل وأسرع »[٣٨] .

وهو وإن حكمه هذا الإتجاه إلا أنه محكوم من الناحية الأخرى بخاصية واضحة في منهجه وأسلوبه ، أعني بذلك ، ميله الواضح إلى التحقيق في مدى صحة الأمور وصدقها . ويبلغ في ذلك درجة كبيرة من التدقيق أعانه على الوصول إليها استقراره مدة طويلة في البلاد التي كتب عنها بالإضافة إلى ما تمتع به من ملكة نقدية جعلت من العسير على عقله التسليم بكل شيء

دون مناقشة أو جدال ، خاصة وهو جدلي من نوع رفيع . فما أن يقرأ لأحد المؤلفين الأوربيين أن أهالي مالطة يربون دود الحرير ، « وقد علم بالتجربة أنه يتحصل منه حرير أعلى من حرير إيطاليا » حتى يرد عليه « قلت ، وقد علم بالتجربة أيضاً أن دود القز لا يعيش في هذه الجزيرة ، والمؤلف إنما كتب هذا عند الشروع في تربية التوت »[٣٩] . ومثل هذا ما يعلق به على قول عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب من أن في مدينة المغرب أربعة آلاف حمام واثني عشر ألف بقال . . وأربعمائة ملهى ، بقوله « إن هذا القدر كثير على أي مدينة كانت فإن باريس وما أدراك ما باريس لا تحوي إلا ثلاثين ملهى ، ويحمل أن المراد بالملهى هنا كل موضوع يكون للهو فيدخل فيه موضع الحكايات والمشي والإجتماع ونحو ذلك »[٤٠] . وهو كما نرى في هذا الموقف أوسع دراية من صديقه الطهطاوي . وفي مثل هذا المقام يرد على أرسطو في أحد كتبه التي ينسب إليه أنه يقول فيها أن أهل البلاد الحارة يعمرون أكثر من أهل البلاد الباردة لأن الحرارة الطبيعية يتأتى حفظها في الأولى أكثر من الثانية ولا يقبل قوله على علاته ، فيقول « ولا أرى قوله مطابقاً للواقع إلا أن يحمل قوله البلاد الباردة على معنى المفرطة في البرودة والبلاد الحارة على معنى المعتدلة في الحرارة »[٤١] . ومثل هذا التحقيق كثير لدى الشدياق ، ولسنا في مقام استقصائه في كتابيه . ويكفي ما ذكرناه دليلاً على هذا الاتجاه . ويتعلق بهذه الخصيصة عنده ، ولربما تفرع عنها خصيصة أخرى هي عمق تحليله للأمور وبراعة تصويره وتمثيله ودقة وصفه لها ، فتراه يحلل الكذب ويقسمه إلى أنواع ، النيىء المائع ، والمطبوخ الناضج ، والمتبل الحريف المحرق ، ويتمثل لكل نوع منها بأمثلة عجيبة تدل على وعي بأحوال المجتمعات ، ومعرفة بأخلاق أهلها على اختلاف أجناسهم ونحلهم[٤٢] . فهو يتتبع الدقائق ويعرضها ، أمامك وحين يريد ، حية ويصورها نابضة تدل على قدرة استبطان قوية حتى لنفوس الآخرين ، فاستمع إليه يصف نزلاء أحد ملاجىء العجزة في مالطة :

« . . والرابع للطاعنين في السن العاجزين عن تحصيل معاشهم المادين لوداع الدنيا يداً ، والمغمضين عن وزرها ونعيمها عيناً قد أصبحوا من هذه الحياة على شفا جرف هار يعتبر بهم اللبيب ويتعظ بهم المستهتر في حب الدنيا الغرور إذ تراهم كالأغرار من الأولاد قد انحنت منهم القدود لما استوى عندهم داعي الأجل وأظلمت منهم الأبصار بعد أن أضاء فيهم جسم المشيب وانحلت منهم القوى بعد أن غلت منهم الأفكار والنهي ، فثم يقضون ما بقي من ظمء ، حياتهم بكان وصار »[٤٣]. ومن أبرز ما يلاحظ في أسلوب الشدياق ومنهجه في رحلتيه ولوعه بالمقارنات بين الأمور في البلدان المختلفة التي يعرفها ، فما أن يتعرض لاختفاء الشمس الكثير في مالطة أثناء فصل الشتاء حتى يتذكر شتاء مصر بشمسه الدافئة المنعشة وصيفها حيث يطفو نيلها فيرطب الأرض وينظم به شمل الأحباب وعقود المسرات[٤٤] ، وكذلك نراه يقارن بين ماء مالطة غير السائغ وماء النيل الذي يطيب شربه على التعب والظمأ ، ومثل هذا مقارنته بين نساء مالطة ولندن وباريس والشرق وكذلك بين أراضي مالطة الزراعية وتسويرها وبين سهول فرنسا وإنكلترا على كثرة ما فيها دون ناطور يحفظها أو حائط يسترها . وهو لا يكتفي أحياناً بمجرد المقارنة ، وإنما يذهب وراءها إلى تفسير الظواهر ، ففي مقارنته بين بيوت مالطة وجمالها الخارجي وبين البيوت في مصر والشام وجمالها من الداخل . يفسر ذلك بأن الأهالي في مصر والشام لا يتولون تجميل بيوتهم من الخارج تهرباً من ظلم الحكام وضرائبهم الباهظة التي لم تكن تقوم على حساب دقيق بقدر ما تقوم على النظر السطحي للأمور ، ولذا كان المالك لا يزين داره ولا يجملها من الخارج تضليلاً وتهرباً[٤٥] . ويجب أن لا يغيب عن بالنا ونحن نتحدث عن خصائص الشدياق وأسلوبه ، روح الفكاهة والتهكم التي طبع بها أسلوبه ففاضت عليها مرحاً طبيعياً لا تكلف فيه ولا تصنع وإنما هو يفيض من نفسه كما يفيض الماء من نبعه سلسبيلاً

سائغاً ، فجاءت رحلته مشبعة بروح صاحبها الفكهة العابثة حتى لا تدري أحياناً أجاد هو أم هازل . وقد مر في فكاهاته ما أشرت إليه من ذكره لإلحاف الشحاذين في مالطة في السؤال حتى « إذا أعطيت أحدهم مرة ، فكأنما قد دوّن ذلك عليك في الدستور ، فأينما يرك يلزمك » . ويتحدث عن بيع السمك الذي يطول عهده في الثلج في إحدى قرى إنكلترا « بارلي » حيث أقام فترة ، فيقول فيه « فربما كان عمر السمكة بعد صيدها أطول منه قبلها »(٤٦) . ومن فكاهاته ما يذكره في طريقة التعارف الذي تم بينه وبين أحدهم في مدينة منشستر بإنكلترا ، يقول « وفيها تعرفت بالفاضل الكريم عبد الله أفندي الأدلبي قنصل الدولة العلية ، ولم يكن لتعارفنا من سبب سوى حمرة رأسينا ، فإنه أول ما رأى طربوشي أقبل إلي مبتسماً باشاً ودعاني إلى منزله من دون أن أبرز كتاب وصاة على عادة القوم »(٤٧) . ولما كان الشدياق لغوياً . لم يعف اللغة والنحو من فكاهاته الخفيفة وروحه المرحة . ومن ذلك قوله في استئجاره بيتاً « إستأجرت بيتاً يشتمل على أربعة مساكن وفرشته على قدر ما اقتضى الحال على متمكن غير أمكن »(٤٨) . وقوله أيضاً ، وقد دهش في مبنى التلغراف في كمبريج لسرعة إبلاغ الأخبار وتلقيها « فبقيت مدهوشاً وأخذت أفكر تفكيراً مضطرباً في كيف أن هذا العلم الحري بأن يدعى من العلوم الإلهية لكونه غير متناه لم يكشف سره من قبل الآن حين كان النحويون يجيزون ستة عشر وجهاً في الصفة المشبهة ويمنعون وجهين ويختلفون في وجه وحين كان العمر يضاع في التعليل والإعتراضات والتجويز والترجيح . . إن وصول الخبر من قاعدة مملكة أوستريا إلى ليفربول في أقل من ثانية أنفع من تجويز عشرين وجهاً في مسألة واحدة »(٤٩) .

هذا ، ويعتبر أحمد فارس الشدياق ، على غرار ابن خلدون الذي كان سابقاً عليه بأربعة قرون ، مثلاً على نمط الكتاب الذين اعتمدوا الترسل في

كتاباتهم إلى حد بعيد ، فقد كان علماً من أعلام النهضة الأدبية الحديثة ، فكان كارهاً للتكلف اللفظي ، والصناعة البيانية ، إذ رأى في محسناتها وزخارفها ضياعاً للمعنى وقتلاً لقوة الإبتكار لدى الأديب . ومن هنا كان في كتابيه (الواسطة وكشف المخبا) واضح العبارة، سهل الأداء، لم يحاول تصنع السجع والمحسنات أو الحشو كما فعل في كتابه (الساق) أحياناً، فكان فيهما أكثر ضبطاً لعبارته ، وأكثر عناية بدقة دلالاتها وأدائها ، وذلك تمشياً مع اتجاهه الأصيل في تطلب الوضوح والدقة ، وأمام الحشد الهائل من المعلومات التي في جعبته ويود تعريف القراء بها دون أن يشغلهم عنها بصناعات لفظية تلهيه هو نفسه أيضاً عن استكمال عرضها وتوضيحها كما يريد . ولذلك جاء أسلوبه واضحاً مشرقاً يتقمص أسلوب الحكاية والقص في كثير من أجزائه ، على الرغم من جفاف الأرقام والإحصائيات التي أولع بها كثيراً .

قيمة الرحلة :

تعتبر رحلة الشدياق إلى البلاد الأوربية على غرار رحلة الطهطاوي ، تعريفاً بهذه البلاد وبمناحي حياتها المختلفة ، في وقت بدأت تتفتح فيه أبواب الغرب على بلاد العرب وبخاصة على مصر في أعقاب الإحتلال النابليوني لها . وما دمنا عرفنا بواعث الشدياق في رحلتيه ، فإننا نعلم أنه إنما تبرع من نفسه بتعريف بني قومه على ما شاهده وخبره من أحوال تلك البلاد وحياة أهلها ، وكان أكثر اهتمامه منصباً على الناحية الإجتماعية في حياتهم متمنياً لبني قومه أن يأخذوا عنهم كل حسن ومفيد فيها . وهو يذكر أنه في كل ما نقله من ذلك كان صادقاً « لم يمل به هوى ولا غرض بغضاً أو حباً إذ ليس له حذل مع أحد منهم ولا ضلع ، ولا انحراف ولا ميل ولا ضر ولا نفع ، وإنما روى عنهم ما روى ، وحكى عنهم ما حكى بحسب ما ظهر له

أنه الصواب . . »[٥٠] ولقد كان حريصاً على دقته وإحصاءاته حتى أنه يشير في طبعة الكتاب الثانية إلى إضافته بعض الإحصاءات التي زادت بعد طبعته الأولى في تونس . والكتابان يعتبران بحق ، معرضاً لحياة الشعوب التي تحدث عنها ، فقد أفاد عمله السابق في نسخ الكتب والتحرير الصحفي ومراقبة المطبوعات في نسخ هذه الحياة بجل تفصيلاتها ، في البيوت وفي الأسواق وفي الأماكن العامة ، وتأتي أهمية ما كتب الشدياق في ذلك لأنه كتبه عن خبرة ومعرفة بسبب إقامته الطويلة واندماجه في حياة تلك الشعوب ، فهو يكتب عن معاناة ، وينقل مباشرة عن الحياة وإلا لما تأتى له هذا الفيض من المعلومات الغزيرة والدقيقة . فجاءت رحلته من هذه الناحية سجلاً غنياً لكثير من مظاهر الحياة ، يفيد مؤرخي حياة هذه البيئة في تلك الفترة . وبالإضافة إلى هذا ، فإن الشدياق يقدم بعض المعلومات التاريخية يلخصها أحياناً عن كتب التاريخ المعروفة ، كما فعل في حروب فرنسا وفي تاريخ بعض الإختراعات والصناعات ، وإن كان كل ما قدمه يتضاءل أمام ما سجله عن الحياة الاجتماعية خاصة باعتباره مصدراً أصيلاً فيها ، ولوجود مصادر لتلك المواد التي لخصها أكثر أصالة من ملخصاتها ، ومنها تلك التي لخص عنها نفسها . ولربما اعتبر الطهطاوي أكثر نجاحاً من الشدياق في اختيار ما أراد التعريف به عن حياة الفرنسيين ، وأكثر منهجية في ترتيبه وضبطه . بالإضافة إلى حسن اختياره وأهميته ، إذ إن كثيراً من إحصائيات الشدياق ، لا ضرورة لها ولا فائدة منها ، حتى للفرد الإنكليزي أو الفرنسي نفسه إذ ما فائدة أن يعرفنا بعدد مستخدمي بريد لندن مثلاً وميزانيته وعدد الرسائل التي ينقلها !! ولعل لطبيعة رحلة كل منهما ، والظروف الخاصة به أثراً في التوجه الذي ارتآه الواحد منهما دون الآخر . . فالطهطاوي ، مسلم ، عاش في باريس طالباً ذا علاقات محدودة بحياتها ، ولذلك أخذ ما أخذه من هذه الظاهرة ودرسه وحلله من زاوية نظر المسلم ،

فقلت لديه الجزئيات وزادت الأحكام وكانت معظم مشاهداته خارجية من الشارع على عكس الشدياق ، الذي عاش في تلك البيئات الأجنبية وهو ما يزال على نصرانيته ، إذ لم يكن قد أعلن إسلامه بعد ، وعاش كرجل حر مستقل الإرادة والتصرف ، فتغلغل في بواطن حياة هذه المجتمعات ، ومن هنا كان الحشد الغامر من التفصيلات حتى في الحياة البيئية ، فلم يقو على تعليلها ودراستها الدراسة المتعمقة فأضحى همه أن يجمعها ويخبر بها أهل بلاده وقارئيه ولذلك جاء سرده لها خالياً من الإنفعال العاطفي والانطباع الذاتي في أكثر الأحيان مما وسمها بشيء من الجفاف لولا فكاهة الرجل التي أشاعها من بعض الأركان . وهو لا يبدو في رحلته فكهاً وحسب ، وإنما هو أيضاً قوي الانتباه ، دقيق الملاحظة ، ذو جلد وصبر عظيمين على التعرض لأدق التفصيلات التي أحسن جمعها ، وأجاد عرضها في شيء من الترابط والتنسيق أعانه عليهما هدوءه وتوفره زمناً طويلاً على هذه الرحلة فملأ عنها كثيراً من المذكرات خلال ذلك .

الهوامش :

(١) محمد عبد الغني حسن ـ أحمد فارس الشدياق (سلسلة أعلام العرب) : ٤٩ ـ ٥٠ . والنص مأخوذ من كتاب « الساق على الساق » .
(٢) الشدياق ـ الواسطة في معرفة أحوال مالطة (طبعة ٢ القسطنطينية ١٢٩٩ هـ) : ٢
(٣) الشدياق ـ الساق على الساق (طبعة مكتبة العرب بمصر ١٩١٩ ، نشر يوسف توما البستاني) : ٢٨١
(٤) م.ن : ٢٨٩
(٥) الواسطة : ٤ . كلمة (حب) كما هي في الأصل ، وربما كانت (حث) وهو الأصح .
(٦) م.ن : ١١
(٧) كشف المخبا عن فنون أوروبا (الطبعة الثانية ـ القسطنطينية ، ١٢٩٩ هـ) : ٢١٦
(٨) الواسطة : ٣
(٩) م.ن : ٣ ـ ٤ . مع تحويل الضمائر
(١٠) كشف المخبا : ٣٦٠
(١١) + (١٢) الواسطة : ١٣ ـ ١٤
(١٣) م.ن : ٣٥
(١٤) الواسطة : ٤٩
(١٥) م.ن : ٢٩
(١٦) م.ن : ٣١
(١٧) م.ن : ١٧
(١٨) م.ن : ٥٧
(١٩) م.ن : ١٦
(٢٠) كشف المخبا ، المقدمة : ٦٧

(٢١) م.ن : ٣٥٠
(٢٢) م.ن : ٣٤٩
(٢٣) م.ن : ٣٥٠
(٢٤) الرشاد ، نوع من النباتات
(٢٥) كشف المخبا : ١٧٧
(٢٦) م.ن : ١٢٨ ـ ١٢٩
(٢٧) م.ن : ٩٠ ـ ٩١
(٢٨) م.ن : ١٧٩
(٢٩) م.ن : ١٣٨
(٣٠) كشف المخبا : ٣١٢
(٣١) م.ن : ٢١٤
(٣٢) م.ن : ٢٢١ . المزر : نبيذ الشعير أو الحنطة .
(٣٣) م.ن : ٢٤٢
(٣٤) م.ن : ٢٥١ ـ ٢٥٢
(٣٥) م.ن : ٣٤١ ـ ٣٤٢
(٣٦) م.ن : ٢٧٤ ـ ٢٧٥
(٣٧) م.ن : ١٧٠
(٣٨) م.ن : ٣٤٧
(٣٩) الواسطة : ٧
(٤٠) م.ن : ٢٤
(٤١) كشف المخبا : ٩١
(٤٢) م.ن : ١٦٩
(٤٣) الواسطة : ٢٧
(٤٤) م.ن : ١٣
(٤٥) م.ن : ١٧
(٤٦) كشف المخبا : ٧٥
(٤٧) م.ن : ٢٠٥
(٤٨) م.ن : ١٩٨
(٤٩) م.ن : ٢٠٨
(٥٠) الواسطة : ٥ ، مع تغيير الضمائر . الحذل : الميل

خاتمة

هذه صورة مجملة في أدب الرحلة عند العرب حتى القرن التاسع عشر ، وبعض النماذج البارزة فيه تخيرتها ممثلة لاتجاهات هذا النمط الأدبي المختلفة ، من موضوعية تقترب من حدود الروح العلمية لدى ابن جبير إلى طراز الخرافة كما تجسده رحلة ابن بطوطة إلى حد كبير ، ثم إلى مثال الترجمة الذاتية وتدوين السيرة الشخصية كما نحا به ابن خلدون مع ما وسم رحلته من طابعه كعالم مؤرخ . وأخيراً مثلت برحلتي الطهطاوي والشدياق إلى البلاد الأوربية في القرن التاسع عشر ، نموذجاً للإنفتاح على بلاد أجنبية والتعرف على حياتها ومظاهر التقدم فيها ، بهدف الإفادة من ذلك التقدم ونقل (عدواه) إلى البلاد العربية . ولقد حرصت خلال ذلك كله ، وبقدر المستطاع ، على الإشارة إلى أهمية هذه الرحلات وإلى أساليب أصحابها في كتابتها مواءمة لأساليب عصورهم أو مخالفة لها . أما أدب الرحلة عند العرب في القرن العشرين فلسوف نتناول نماذج منه في دراسة مستقلة تحت عنوان « أمين الريحاني وأدبه في الرحلة » .

فهرس

أدب الرحلة
عند العرب

الرحلات منابع ثرة لمختلف العلوم ، وهي بمجموعها سجل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة ومفاهيم أهلها على مر العصور . هذا الكتاب يتناول أدب الرحلة عند العرب منذ الفتح الإسلامي حتى القرن التاسع عشر ، فيتحدث عن نشأة هذا الفن وصلته ببعض العلوم والفنون الأخرى ؛كما يتعرض إلى أسلوب كتابة أدب الرحلة وتطوره من خلال عرض نماذج من الرحلات البارزة التي تعكس كثيراً من جوانب الحياة كما عاشها الرحالون ورأوها في أيامهم .



دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

تصميم الغلاف
حسن عاصي

الثمن ٨ ل.ل